يوسف السباعي

صور طبق الأصل

obeikandl.com

أطياف	الطبعة الأولى سنة ١٩٤٧	الناشر : دار التوزيع والطباعة والنشر طبع فى شركة فن الطباعة
	الطبعة الثانية سنة ١٩٥١	الناشر : مكتبة الخانجى طبع فى شركة فن الطباعة
نائب عزرائيل	الطبعة الأولى سنة ١٩٤٧	الناشر : دار التوزيع والطباعة والنشر طبع فى شركة فن الطباعة
	الطبعة الثانية سنة ١٩٥١	الناشر : مكتبة الخانجى طبع فى شركة فن الطباعة
اثنتا عشرة امرأة	الطبعة الأولى سنة ١٩٤٨	الناشر : مكتبة الخانجى طبع فى شركة فن الطباعة
	الطبعة الثانية سنة ١٩٥٠	الناشر : مكتبة الخانجى طبع فى شركة فن الطباعة
خبايا الصدور	الطبعة الأولى سنة ١٩٤٨	الناشر : دار النشر العربية طبع فى دار الأحد ببيروت : لبنان
	الطبعة الثانية سنة ١٩٥١	الناشر : مكتبة الخانجى طبع فى شركة فن الطباعة
يا أمة ضحكت	الطبعة الأولى سنة ١٩٤٨	الناشر : مكتبة الخانجى طبع فى شركة فن الطباعة
	الطبعة الثانية سنة ١٩٥٠	الناشر : مكتبة الخانجى طبع فى شركة فن الطباعة

obeikandl.com

اثنا عشر رجلا	الطبعة الأولى سنة ١٩٤٩	الناشر : مكتبة الخانجى طبع فى شركة فن الطباعة
	الطبعة الثانية سنة ١٩٥٠	الناشر : مكتبة الخانجى طبع فى شركة فن الطباعة
أرض النفاق	الطبعة الأولى سنة ١٩٤٩	الناشر : مكتبة النهضة طبع فى مطبعة السعادة الكبرى
فى موكب الهوى	الطبعة الأولى سنة ١٩٤٩	الناشر : دار الفكر العربى طبع فى شركة فن الطباعة
	الطبعة الثانية سنة ١٩٥١	الناشر : دار الفكر العربى طبع فى شركة فن الطباعة
من العالم المجهول	الطبعة الأولى سنة ١٩٤٩	الناشر : مكتبة الخانجى طبع فى شركة فن الطباعة
هذه النفوس	الطبعة الأولى سنة ١٩٥٠	الناشر : دار الفكر العربى طبع فى شركة فن الطباعة
	الطبعة الثانية سنة ١٩٥١	الناشر : دار الفكر العربى طبع فى شركة فن الطباعة
إنى راحلة	الطبعة الأولى سنة ١٩٥٠	الناشر : مكتبة الخانجى طبع فى شركة فن الطباعة
	الطبعة الثانية سنة ١٩٥١	الناشر : مكتبة الخانجى طبع فى شركة فن الطباعة

obeikandl.com

مبكى العشاق	الطبعة الأولى سنة ١٩٥٠	الناشر : دار الفكر العربى طبع فى مطبعة الاعتماد
بين أبو الريش وجنينة ناميش	الطبعة الأولى سنة ١٩٥٠	الناشر : مكتبة الخانجى طبع فى شركة فن الطباعة
أغنيات	الطبعة الأولى سنة ١٩٥١	الناشر : مكتبة الخانجى طبع فى شركة فن الطباعة
أم رتيبة	الطبعة الأولى سنة ١٩٥١	الناشر : مكتبة الخانجى طبع فى شركة فن الطباعة
هذا هو الحب	الطبعة الأولى سنة ١٩٥١	الناشر : دار الفكر العربى طبع فى شركة فن الطباعة
صور طبق الأصل	الطبعة الأولى سنة ١٩٥١	الناشر : مكتبة الخانجى طبع فى شركة فن الطباعة

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

openkandil.com

الإهداء

إلى خير من فرّج عنى الهم . وأزال الكرب .
إلى أحد أصول هذه الصور .

الصديق

عبد المنعم الشاذلى

يوسف الصباعى

obeikandl.com

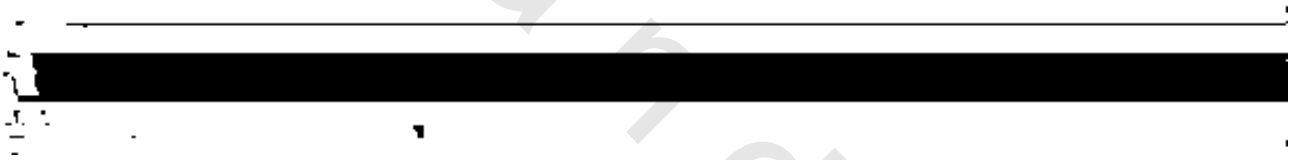

obeikandl.com

مقدمة

هذه القصص أخذتها من الناس . . صور طبق الأصل لهذا وذاك . . لا أدعى لنفسى فيها حق ولا فضل . . ولا أحرم على أحد أن ينقل منها أو يقتبس — لو وجد فيها ما يستحق النقل والاقتباس — وكيف أحرّم شيئاً مشاعاً . . شيئاً أنا نفسى ناقله من الأصل المجسد . . كيف أحرّم على الناس ما أخذته من الناس .

أأستطيع أن أدعى لنفسى حقاً فى « إمام الفك » و « خال علام » . . . . وهى مخلوقات حية تسعى بيننا ؟

أم يكفنى أن أضع إسمى عليها . . كأنى قد شاركت الرب فى خلقها . . حتى أحاول أن أدّع لنفسى عليها حقوقاً محفوظة ! !

حرام والله . . إنى أحس من هذه القصص بمنتهى الخجل . . فلو استطاعت النطق لصاحت بى .

« أيها المؤلف المدّعى . . رفقاً . . ما أنت إلا غبى . . مغرور . . محتال . . غبى كغيرك من البشر . . هيأ لك الغرور أنك أفضل من سواك طينة وأطيب معدناً . . فجلست ترقب وتكتب . . وسوّلت لك نفسك المحتالة أن تبيع الناس ما كتبت عنهم . . فتنال منهم النقود . . وربما الإعجاب » .

إنها على حق . . إنى خجل . . ولولا يقينى بأنى لست المحتال الوحيد فى هذا البلد . . لما أقدمت على نشرها .

يوسف السباعى

تحت الطبع

الشيخ زعرب وآخرون

تمثيليات قصيرة

آثار فى الرمال

نفحة من الإيمان

أساطير الأولين

السقامات

موته لله

بين الأطلال

obeikandl.com

تطلب كتب المؤلف من :

مكتبة النهضة المصرية ، ودار الفكر العربى ، والخانجى بالقاهرة

« المثنى ببغداد .

« المعارف ببيروت .

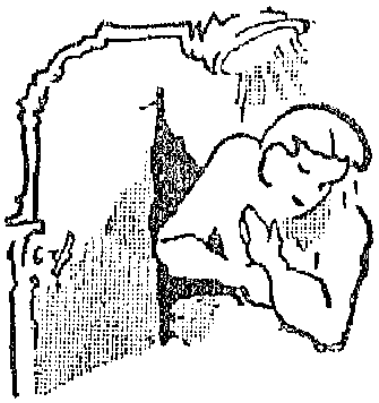

وخرج خال علّام من الحمام وهو يصرخ ويتأوه .. ويسأل علام : لِمَ لم يخبره أن الاستحمام عندهم جناية . واندهش علّام ، ووقف يستمع لما حدث .

خال علّام ..

الواقعة فى ميس السوارى منذ ما يقرب من عشر سنين ، ولست أدرى أى شيطان مناحك يدفع بهـــا الآن فى رأسى وأنا أجلس للكتابة فيرغمنى على أن أسطرها وأنشرها لتتخذ مكانها بين ما تعودت أن أكتب من أقاصيص . ويبدو لى أن من الخير — قبل أن أروى الواقعة — أن أعطى للقارىء فكرة عن حياتنا وقتذاك . . . فأرسم له ما يسمونه « البـاك جراوند » التى ستتخذ الواقعة محلها فيه .

كنا ثلة عزّاب نقطن الميس . والميس — لمن لا يعلم — هو سكن الضباط الذين يعيشون فى الثكنات . وكان ميس السوارى مكوناً من ست حجرات ، يسكنها دائماً أحدث ستة ضباط ، وهو مكون من طابق واحد على شكل مستطيل ناقص أحد الأضلاع . . يشغل الجناح الأيمن منه حجرات السكن . . والجناح الأيسر يشغله صالون الجلوس وحجرة الأكل . ويقوم وراءه بناء منفصل يقع به المطبخ والحمام ، وعنبر لنوم المراسلات وحمام آخر لهم .

هذا عن الميس من حيث البناء . . أما من حيث السكان فإنى أجد من العسير علىّ وصفهم . . فإن نوادرهم تتكأ كأ

على ذهنى ، فلا أدرى بأيهم أبدأ ، وقد كانوا كلهم أناساً ظرفاء . . عزازاً لطافاً . . وكان لكل منهم شخصيته المرحة المستقلة .

إنى لأجد الذهن يعود بى القهقرى فيقطع السنين الطوال فى لمح البرق ، وأجد نفسى مرتدياً الحذاء الطويل وبنطلون الركوب والقميص ، وقد عدت إلى الميس بعد المغرب عقب تمام المساء والهتاف . . وقد أحسست بساقىّ قد كلتا من فرط السير واللف فى الشكنات ، وأدخل إلى الصالون لأرتمى على أقرب مقعد . . وليس لى من أمنية سوى أن أنزع الحذاء الطويل لحظة لأريح قدمى .

وألتفت حولى فأفاجأ بالبارودى — أحد زملائى — وقد اضطجع فى أحد المقاعد ومدد ساقيه وهو ما زال برداء الطابور وبالحذاء .

وتصيبنى الدهشة من منظره . . ترى ماذا أجبره على البقاء إلى هذه اللحظة . . سجين القدمين معذب الجسد ؟ ولِمَ لم يلق عنه ملابسه وينطلق بعيداً إلى الخارج ليروّح عن نفسه ؟ !

ولا تمضى فترة قصيرة حتى أعرف العلة وأستجلى السبب .

إنه اللمونى . . ولا أحد سواه .

أجل ! إن اللمونى هو سبب بقاء أنور البارودى بهذا المنظر حتى الآن . . فلقد كان يناقشه الحساب . . وحساب اللمونى — لو تعلمون — عسير .

ولكنكم لم تعرفوا اللمونى بعد . . فيجب علىّ أن أقدمه لكم أولا .

اللمونى هو حكمدار الميس وقائد الطباخين والسفرجية والمراسلات . هو الذى يتولى عملية شراء لوازم المطبخ من السوق . . وهو المسئول أمام ضابط الميس عن تقديم حساب الميس .

ولا أظنكم تجهلون مبلغ مهارة الطباخين فى المغالطة فى الحساب . وكما كان اللمونى قائد الطباخين . . كان — بحكم المهنة — شيخ المغالطين .

لننظر إلى البارودى — وقد كان وقتذاك ضابط الميس — وقد اعتدل فى مجلسه وأوقف اللمونى أمامه يحاسبه حساب الملكين .

— ها . . وجبت إيه كمان ؟

— ست ارطال لبن وأقتين سكر .

— عشان إيه دول ؟

— عشان الرز أبو لبن .

— ست ارطال لبن وأقتين سكر عشان ست اطباق رز بلبن ؟ يعنى قصدك تقول إيه ؟ قصدك تقول إن كل طبق خد رطل لبن ؟

— مضبوط .

— مضبوط إزاى بقى ؟ ! . طب أنا حاجيب رطل لبن وأفرغه فى الأطباق وأشوف يملا طبق واحد بس زى ما بتقول والا لأ .

ويبدأ البارودى تجربته . . فإذا بالرطل يملأ أربعة أطباق . وينظر إلى اللمونى وهو يحاول أن يكتم ثورته ويصيح به :

— إيه رأيك ؟

وبمنتهى الهدوء يجيب اللمونى :

— أصل اللبن بيتبخر ، يقوم يخس .

— طيب بلاش كده . . تعرف الطبق الواحد على حسابك يكلف كام ؟

— كام ؟

— خمسه صاغ . . الطبق اللى بناكله عند استرا أو أسديه بتلاته تعريفه . . بتعمله إنت بخمسه صاغ ، إيه رأيك بقى ؟

— وهوّا دا زى بتاع أسديه ؟

— لا العفو . . زيه ازاى ؟ مش ممكن . . على العموم يا لمونى من هنا ورايح ما تعملش رز بلبن أبداً . مش ضرورى ناكل رز بلبن . . هات حلو أى حاجه . . هات بلح أمهات .

— كل يوم ؟

— أيوه كل يوم .

وينتهى حساب الرز أبو لبن ، ويبدأ حساب آخر لا يقطعه سوى دخول الشاذلى مصفقاً بيديه منشداً بأعلى صوته : « يا تلتميت مرحبا وسلامات يا خلى . . ياللى تكيد العواذل وانت داخل لى » .

والشاذلى كان فى ذلك الوقت عاشقاً . . وقد كان هذا العشق هو سر بقائه فى الميس . فقد كان يقضى جل وقته يهز رأسه ويترنم بأناشيد الهوى .

ويبصر الشاذلى اللمونى وهو يهم بالانصراف من أمام البارودى فينادى عليه :

— لمونى الكلب . . تقدر تقول لى اللحمه اللى جبتها النهارده دى جبتها منين ؟

— من الجزار .

— مش ممكن ، لازم جبتها من العتق .. تعرف أنا متهيأ لى إنك انت لما بتروح تشترى لنا الأكل بتعمل إيه ؟ تروح للخضرى وتقول له : عندك كوسه شايخه ؟ يقوم يقول لك لأ . تقول له : ولا بطاطس معفنه ؟ يقول لك برضه لأ .. تقول له : طيب عندك قوطه حمضانه ؟ يقول لك عندى شويه . تقول : طيب لمهم لى . . وبعدين تروح عند الجزار تسأله على لحمه بايته والا منتنه . . وتفضل تلم الزباله اللى فى السوق وتيجى تطبخها لنا .

— إزاى بقى يافندم ؟

— أهو كده . . اليوم اللى ماتطبخش فيه يبقى لازم ما فيش فى السوق حاجه وحشه .

وبعد لحظة يدخل علام ، فينظر إلى اللمونى أيضاً ويصيح به :

— لمونى . . من بكره تطلع طابور ركوب .

وهنا ينهار اللمونى . . فقد كانت تلك أكبر كارثة يمكن أن يصاب بها . . فقد كان بجسده الأبيض السمين المربرب لا يصلح قط للركوب . وكان يعتبر طابور الركوب العذاب الأكبر .

وينصرف اللمونى ، وتتوافد الثلة الواحد بعد الآخر

حتى يكتمل العقد وتنطلق الضحكات الخالصة من صدور لا تحمل الهم ولا تعرف الحزن .

وتبدأ الثلة فى التفكير فى العشاء ، فيصيح علام بعثمان شديد :

ـ وله يا شديد !

ـ عايز إيه يا علام ؟

ـ تشاركنى فى أقة عنب ؟

ـ عنب إيه ياعم .

ـ طيب تشاركنى فى بطيخه ؟

ـ لا ياعم أنا ما احبش البطيخ . . أنا حا اتعشى عسل وطحينه .

ـ إيه ؟ ! وبعدين لما أجيب البطيخه تبقى تقول لى ادينى شقة ؟

ـ يا أخى بلاش دَوْشه . . إبعد عنى . . بطيخ إيه . . وعنب إيه .

ويشترى علام البطيخة . . ولا يكاد يشقها حتى يهجم عليه شديد خاطفاً قلبها . . فيمسك علام البطيخة ويلبسها رأس شديد .

* * *

obeikandl.com

ولكن مالى قد استرسلت فى الدردشة وقص الذكريات ورسم « الباك جراند » حتى كدت أنسى القصة نفسها ؟

هل يسمح لى القارىء بأن أسترسل به فى مجرد حديث ويغفر لى هذه المرة ألا أعطيه قصة ؟

لا أظن . . فقد ابتليت بأنى قاص ، والقارىء لن ينتظر منى ولن يستسيغ سوى قصة .

حسن . . لنبدأ القصة إذن . . وعوضنا على الله .

☆ ☆ ☆

تلك كانت ثلة ضباط الفرسان الذين يقطنون الميس وقتذاك . . أنا والشاذلى والخضيرى وسعد الدين وعلام وسليمان وشديد وعبد العزيز مصطفى والبارودى . . ثلة مرحة ضاحكة . . نضحك من كل شىء وعلى كل شىء . . لم يكن يشغل بالنا وقتذاك سوى شىء واحد :

هو الحمام المبتل ! !

كنا نخرج مبكرين إلى طابور الركوب ، فإذا ما عدنا للفطور بعد الطابور ودخلنا إلى الحمام لكى نغسل أيدينا أو وجوهنا وجدنا أرض الحمام مغرقة بالمياه ، وأن هناك من استعمل الدش .

ويرفع علام عقيرته بالصياح :

— يا لمونى .

ويأتى اللمونى مرتجفاً ، فيصيح به علام :

— إيه الميه دى ؟

ويهز اللمونى رأسه فى دهشة ولا ينبس ببنت شفة .

ويستمر علام فى صياحه :

— فيه حد بيستحمى هنا واحنا فى الطابور ؟

— لا يافندم .

— لأ إزاى ؟ . . مش ممكن ، لازم يكون فيه حد استعمل الدش .

ويقسم اللمونى أيماناً مغلظة بأنه لم يستعمله ولم ير أحداً يستعمله .

وأخذت الواقعة تتكرر كل يوم . . نعود من الطابور فنجد أن الحمام مبتل وأن المياه قد أغرقت أرضه .

من ذا الذى يستحم يا ترى ؟

وأقسم علام أن يضبط المستحم فى حمام الضباط متلبساً بجريمته ، وأن يريه نجوم الظهر .

ومرت الأيام ونحن نحاول أن نجد الفاعل عبثاً ، حتى كان ذات يوم حضر أحد أقارب علام لزيارته وأظنه خاله .

ورجانا علام أن نحترم أنفسنا أمام الرجل . . وأن

نتمسك بأهداب الآداب ونكف عن التهريج ، حتى نظهر أمامه بمظهر محترم .

ولم يكن طلب علام بالمطلب اليسير ، فقد كان من أصعب الأمور أن نتكلف الجد وأن نكف عن المزاح ، ولكننا — مراعاة لخاطر علام وقريبه المحترم — صممنا على أن نكلف أنفسنا ما لا طاقة لها به ، وأن نتحلى بالجد والأدب .

وكان قريب علّام قد حضر من أوربا ، وقد نوى أن يبيت ليلته مع علّام حتى يسافر فى غده إلى الإسكندرية .

وقلنا لأنفسنا : لا بأس .. ليلة واحدة من الأدب يمكن احتمالها فى سبيل علّام ، وفى سبيل أن يأخذ الأغراب عنا فكرة حسنة .

وهكذا تذرعنا بالأدب والتزمنا الجد ، وجلسنا إلى العشاء فى سكون وخشية دون أن ينبو عنا لفظ جارح ، أو كلمة خارجة ، ودون أن نخاطب بعضنا بعضاً إلا بالرتب والألقاب .

ولست أشك فى أننا قد نجحنا فى محاولتنا أيما نجاح ، وأن الرجل أعجب بنا أيما إعجاب ، وأننا رفعنا رأس الفرسان عالياً فى نظر الرجل .

وفى الصباح خرجنا كعادتنا إلى الطابور ، وعدنا كانا إلى الميس بعد الطابور إلا واحداً . هو الشاذلى . . فقد عاد قبلنا وترك الطابور فى منتصفه ، لأنه كان متعباً ، إذ كان على سفر فى الليلة السابقة .

أتسمحون لى ببضعة أسطر أصف فيها الشاذلى ؟

إنه إنسان يستحق الوصف . . إذ هو بطل الواقعة .

هل تسمحون ؟

سمحتم أم لم تسمحوا . . سأصفه وأجرى على الله .

إن خير ما يوصف به الشاذلى هو أنه رأس وحنجرة وهو يستعمل حنجرته أكثر من رأسه . . زعموا أنه كتب له فى تقريره السرى ذات مرة أنه « ضابط لايحتاج إلى بروجى » ، وهو فعلا لا يحتاج إلى بروجى . . لأنى أسمع صوته أحياناً وهو يتكلم وأكون جالساً فى مكتبى فى كوبرى القبة ، وأقوم لأبحث عنه فلا أجده ، ثم يتضح لى فى النهاية أنه يتكلم فى مصر الجديدة ، مجرد كلام .

لا أظن أن به ما يوصف أكثر من هذا . اللهم إلا أنه حاضر البديهة ، سريع النكتة حاضرها ، ويقولها ولو على نفسه وذويه . . ويفضل أن يقولها ثم يعدم أو يسجن على أن لا يقولها .

وهو مخلوق شديد الذكاء والوفاء ، باطنه خير بكثير من ظاهره ، والفضل فى تشويه ظاهره له وحده فهو خير من يشنّع بنفسه ولقد قلت له ذات مرة إن خير طريقة لتحسين سمعته هو قطع لسانه ، وهو يتلهف إلى سماع الإشاعات وترويجها ويجيد المبالغة لغير ماسبب ولا فائدة .

عاد الشاذلى من الطابور ، واتجه أول ما اتجه إلى المطبخ ليسأل اللمونى عما أعده من إفطار . . والتهم فى فمه « اللى فيه القسمه » على سبيل التذوق . . وشتم اللمونى بما فيه القسمة أيضاً ، ثم اتجه بعد ذلك إلى الحمام .

ودفع باب الحمام فإذا به مغلق من الداخل .

ثم دفعه مرة ثانية .

جالك الموت يا تارك الصلاة ، والله وقعت واللى كان كان ..

أجل ! لقد سمع الشاذلى بأذنيه صوت « الدش » وهو ينهمر .

أخيراً وقع المجرم ، وفى حالة تلبس .

شهر بأكمله وهو يستغفلنا جميعاً . . ويتسلل إلى الحمام ليأخذ دشاً أثناء غيابنا فى الطابور .

إنه أحد الطباخين أو أحد المراسلات .

وصاح الشاذلى وفى صوته رنة انتصار :

ـ افتح يا حيوان .

ولم يسمع أى رد . . بل استمر صوت «الدش» ينهمر ، وقطرات الماء تطرق الأرض وجسم المستحم .

وعاد الشاذلى يصيح مهدداً :

ـ افتح بقول لك .

ولكن لم يجب أحد . . ولم يفتح الباب .

وتراجع الشاذلى عن الباب قليلا . . وبكل قوته دفع الباب بكتفه . . فانفتح . . واندفع هو إلى الحمام . . رافعاً سوط الركوب بيده . . ليهوى به على الجانى . . ويؤدبه تأديباً سريعاً .

تعالت الصيحات ، وتعالت الضربات :

ـ آى .

ـ آى يا ابن الكلب . . . أمال فالح كل يوم تخش تستحمى وتغرق الحمام .

ـ أنا أصلى . . .

ـ أصلك إيه ؟ ! أصلك حيوان .

ـ أنا . .

ـ انت إيه ؟

— أنا قريب علام .

— قريب مين ؟ !

— قريب علام .

— يا نهار إسود . . وإيه اللى جابك هنا .

وفى تلك اللحظة سمع الشاذلى صوت علّام . . وأدرك ماذا يمكن أن يحدث له من علّام إذا عرف ما فعله بقريبه ، فترك الحمام . . وانطلق يعدو فى الاتجاه الآخر . . هارباً من الميس .

وخرج قريب علام من الحمام يصرخ ويتأوه ، ويسأل علّام لِمَ لم يخبره أن الاستحمام عندهم جناية . . واندهش علّام ووقف يستمع إلى ماحدث ثم انطلق يعدو فى أعقاب الشاذلى .

ويعلم الله ما فعله به .

ويعلم الله كذلك ماذا كان رأى قريب علّام فينا بعد العلقة التى أخذها لمغامرته بالاستحمام .

أغلب الظن أنه كان يفضل المبيت على قارعة الطريق .. فقد كان يصبح أكثر أمناً ! !

وصلنا الفرن سوا . . الواد سلّم الورقه
بتساعته للفران ، وأنا سلّمته ورقتي . .
ورجعت له قرب الظهر كانت اللحمه استوت . .
وروّحت البيت أكلت أكلة عمري ما كلت
زيها . .

صحت الفرنت . .

obeikandl.com

فقفقت مفتاح !! .

— رحت الفرن ؟! .

تلك كانت الصيحات التقليدية التى كانت تنطلق كل يوم فى شارع خيرت متبادلة بين حنجرتين قويتين مجلجلتين ، الأولى مستقرة على أحد مقاعد ترام رقم ١٢ ، والثانية قابعة على مقعد على رصيف الشارع أو ممسك صاحبها بأحد الأمواس أو ماكينات الحلاقة يجول بها ويصول فى أحد الذقون أو الرؤوس .

كان صاحب الحنجرة الأولى هو أبى . . المرحوم محمد السباعى . . أما صاحب الثانية فقد كان الأسطى محمود (المزين) ! .

كان أبى يركب الترام من ميدان السيدة ويجلس على مقعده مهيباً محترماً بين الركاب بجسده الضخم القوى الممتلىء ووجهه الأبيض المشرب بحمرة وبذلته الأنيقة وياقته المنشاة والطربوش الطويل يحجب معظم جبينه ويستقر على حاجبيه . كان يجلس بين الركاب فى نفخة واعتداد . . ويتحرك به الترام فى شارع خيرت . . حتى يمر بالبقعة المعينة فتنطلق منه صيحة مدوية فى جد واهتمام :

— هفقت مفتاح ؟ ! .

وفى لمح البصر ترتد إليه الصيحة كأنها صدى الصوت منطلقة من الأسطى محمود ، وقد وقف بقميصه وبنطلونه وصلعته اللامعة يصيح متسائلا فى مثل جد أبى واهتمامه :

— رحت الفرن ؟ ! .

وهكذا تنطلق الصيحتان المتسائلتان المتبادلتان والتزام معنىً فى سيره . . كأنهما رصاصتان طائشتان لا تنتظران جواباً . . وترتسم على وجوه الركاب دهشة ويحاولون عبثاً أن يفهموا سبباً لما حدث أو معنى لما قيل . . وقد يتساءلون فيما بينهم عما قال أبى وعما قال الأسطى محمود . . وقد ينبئهم خبير سبق له الركوب مع أبى من قبل بأن ما قيل هو : « هفقت مفتاح » و « رحت الفرن » ، ولكنه يعجز عن تفسير معناهما وعما يقصد بهما .

ولست أشك فى أن القارىء مهما بلغ به الذكاء إلا يتساءل فى عجب وحيرة مثل الركاب ولا أظنه واجداً لسؤاله جواباً شافياً .

إن كلمة هفقت (بفاء مشدّدة) تعنى فى لغة محمود المزين وفّقت .. والأسطى محمود لغته الخاصة التى تحتاج إلى قاموس لتبيانها .. وهى تبدو فى نطقها كأنما يقصد بها الهزل والدعابة

فى الوقت الذى ينطقها الرجل فى منتهى الجد . . ولا يقصد بها هزلا قط . . لسبب واحد هو أنه لا يستطيع أن ينطق سواها لأنه أصيب بنزلة جعلت لسانه « ملووقاً » فتعذر عليه النطق السليم .

وكان الرجل من تلقاء نفسه مخلوقاً خفيف الدم مرحاً مهزاراً . . وزاده ثقل لسانه واعوجاج نطقه خفة فوق خفة . . وأصبح حديثه مهما حاول أن يكون جاداً حديثاً فكاهياً مضحكا ! .

كان الأوسطى محمود ينطق « الملوخية » « ملوخله » . . فإذا أراد أن يقول أنه سيتغدى ملوخيه بالفراخ . . كان قوله : « ملوخله بالفيران » . . وإذا أراد أن يضيف أن الحلو « كنافة » قلبها لسانه إلى « كناسة » فأضحى غداؤه الذى يصفه على سبيل التفاخر هو « ملوخله بالفيران والحلو كناسه » ! .

ولم يكن أبى يتخذ الأوسطى محمود مجرد حلاق . . بل كان يتخذه سميراً ومهرجاً وصديقاً وفياً ، ولم يكن يذهب إليه لمجرد الحلاقة ، بل كان يتخذ حانوته أشبه بمقهى ، يقضى فيه معظم أوقات فراغه فيتلهى بمشاهدة الرائحين والرائحات والغادين والغاديات ويتبادل النكات الطائرة مع الأسطى محمود إذا كان منهمكا فى الشغل ، فإذا ما شطب جلس معه يسامره ويسليه !

وكان أول عثور والدى على الأسطى محمود . . أو اكتشافه له . . أقول عثوراً واكتشافاً . . لأن والدى كان يعتبر الأسطى محمود لقطة أو كنزاً . . وكان يفضل صحبته على صحبة رئيس وزراء ، ويعتبر عن إيمان أنه خير وأفضل وأذكى وأظرف من معظم مشاهير البلد الذين كان يسميهم بالأدعياء . . أقول إن أول عثور والدى عليه كان بصالون الأسطى ابراهيم الحلاق على ناصية شارع السدالبرانى وشارع التلول والملاصق لحانوت الفكهانى الكائن فى شارع التلول .

وكان الأسطى محمود وقتذاك عاملا فى صالون الأسطى ابراهيم . . فاكتشف فيه أبى مواهبه . . واتخذ من الصالون مكانه المختار .

والمدهش أن الأسطى محمود — باعتراف أبى نفسه — لم يكن حلاقاً ماهراً بل كان أبى دائماً يتهمه بثقل اليد . . وكان كثيراً مايسبب له جروحاً فى ذقنه حتى انتهى به الأمر إلى أن يتخذ له حلاقاً آخر للحلاقة مع بقاء الأسطى محمود فى مركزه الممتاز كسمير ومضحك وصديق .. ومع استيلائه على أجرة الحلاقة الدورية المنتظمة دون أن تمس موساه ذقن أبى أو يمس مقصه شعر رأسه .

وفى ذات يوم فوجىء أبى بخلو صالون الأسطى ابراهيم

من الأسطى محمود . . فأصابه الدهش وتساءل عنه . . فأنبأه صاحب الصالون بأنه طرده . . وأنه أحضر بدله صنايعاً ممتازاً أكثر منه مهارة وطلب منه أن يجربه .

ولكن أبي لم يكن يعتبر الأسطى محمود حلاقاً . . بل كان يعتبره عبقرياً ممتازاً . . وفيلسوفاً كبيراً لم يجد الدهر بمثله . . وتعجب كيف لم يقدر الأسطى ابراهيم مواهبه وكيف طرده بمثل هذه السهولة . . دون أن يبدو عليه أسف ولا حزن . . ودون أن يغلق الحانوت حداداً على ذهابه . . وكيف يدعى أنه أحضر بدلا منه إنساناً ممتازاً أكثر منه مهارة ! ؟ .

ولم يجب أبي على دعوة صاحب الصالون . . بل هزّ رأسه فى حسرة وأسى . . وغادر الصالون دون أن يحاول أن يخطو به بعد ذلك مرة واحدة .

وذهب يبحث عن الأسطى محمود طيلة يومه حتى عثر عليه فى بيته بأحد أزقة البغالة . . ولم تمض بضعة أيام حتى كان الأسطى محمود قد افتتح صالوناً خاصاً به فى الناحية الأخرى من شارع السد لا يبعد كثيراً عن صالون الأسطى ابراهيم . . وكان أبي يتخذ منه مكانه المختار واضعاً ساقاً على ساق فى مدخل الصالون .

وسأل أبي الأسطى محمود عن سبب طرده من صالون

الأسطى ابراهيم ، فهز الأسطى محمود رأسه وقال أسفاً :

ـــ مالهش فى الطّين (يقصد الطيّب) نصيب . راجل ضلالى ونيته وحشه .

ـــ أيوه مفهوم . . لكن إيه السبب إللى خلاه طردك ؟

ـــ آل إيه بيقول إنى هفقت مفتاح .

ـــ بيقول إيه ؟ ! .

ـــ هفقت مفتاح .

وبعد الشرح فهم أبى أن الأسطى محمود طرد لأن صاحب الصالون وجد النقدية فى صندوق المحل ناقصة فاتهمه بأنه وفق مفتاحاً فتح به الصندوق وأنه سرق ما به .

واستغرق أبى فى الضحك على تهمة التهفيق التى اتهم بها الأسطى محمود والتى كانت السبب فى طرده وقطع عيشه .

ومن ذلك الحين والكلمة لا تفارق لسان أبى . . فهو لا يكاد يلقى الأسطى محمود ، حتى يصيح به :

ـــ هفقت مفتاح ؟

حتى أضحت بينهما كأنها سلام عليكم !

وكان أبى يأخذ فى شرحها كل مرة لمن لا يعرفها . حتى ضج الأسطى محمود وقال لأبى :

ـــ ياسى سباعى . . الله لا يسيئك كفايه فضايح . .

مابلاش السيره المهبه دى ! دى ماكانتش كلمه .

ومع ذلك فقد استمر أبي يستعملها كتحية للأسطى محمود حتى وجد الأسطى محمود رداً لها .

كان ذلك عند ما أقبل عليه أبي ذات عصر متهلل الأسارير ، ضاحك السن ، وصاح بالأسطى محمود :

— هنفقت مفتاح ! .

فأجابه الأسطى محمود :

— وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته .. مالك مبسوط قوى كده ؟ خير إنشاالله .

— خير قوى . . ما فيش بعد كده خير .

— حصل إيه . . أخذت درجه ؟

— أحسن .

— أخذت فلوس من الحاج مصطفى (الحاج مصطفى محمد صاحب المكتبة التجارية الذى نشر له معظم كتبه ومنها رباعيات الخيام) .

— أحسن .

— شفت بنت حلوه ؟ .

— أحسن .

— فيه إيه أحسن من كده ، يا أخى قول لى بقى وريحنى !

— أكلت ورقة لحمه معتبره .

— ودى حاجه غريبه . . ! ما انت كل يوم والتانى بتاكل ورقة لحمه .. هوّا انت وراك حاجه غير ورق اللحمه وورق الكتب ؟! .

— لا .. لا .. دى حاجه تانيه خالص .. دى ورقة لحمه ممتازه غير اللى كنت باكله خالص .. حاجه ما تخطرش على البال .

— يعنى إيه ؟ مش ورقة لحمه ، والا ورقة بنكنوت ؟! .

— لحمه . . لحمه يا غبى .

— يعنى لحمه من السما ! .

— من الجزار يا حمار .

— طيب كل مره ما انت بتجيبها من عند الجزار . . والا بتجيبها من عند باتا ! .

— دى ورقه ملوكى . . ما وردتش .

— إيه بس حكايتها ؟ .

— أنا أقول لك حكايتها . . النهارده رحت عند سلامه الرباط الجزار وقلت له يوضب ثلاثة أرطال فى ورقه زى العاده علشان أوديهم الفرن . . قعد يلم من هنا ومن هنا ، حته من بيت الكلاوى وحته من الفخده ، وإيشى عضم ، وإيشى شغت لغاية ما كمل الثلاثة الأرطال وابتدأ يوضبهم

وخرط عليهم البصلة وحط البهارات والتحابيش ولفهم فى الورق وقال لى اتفضل . . حاجه معتبره قوى .

ـــ هى دى الورقة المعتبرة ؟ .

ـــ لا . . مش هىّ .

ـــ أمال منين الورقة المعتبرة ؟ .

ـــ الورقة المعتبرة لقيته عمال يوضب فيها على جنب . . حتة قطعية نظيفه زى اللوز . . تلاقى حتة العضم ملبسه باللحم وفيها راق دهن زى القشطه . . وقعد يقسم فيها ويوضب ويخرط عليها ويرش ويحبش فاستعجبت وسألت الواد الصبى :

ـــ الورقه دى لمين ؟ .

فرد الواد بصوت واطى :

ـــ دى له . . للمعلم سلامه نفسه .

وقال الأسطى محمود معلقاً على قوله : « أظنك اتحسرت »

ـــ قوى . . وفضلت واقف أبص لها وأبص للورقة بتاعتى ومش قادر أتكلم .

ـــ الله يكون فى عونك .

ـــ المقصود لف الورقة واداها للواد الصبى علشان يوديها الفرن وأنا أخذت الورقة بتاعتى عشان أوديها الفرن .

ـــ وبعدين ؟ .

— ولا قبلين . . . وصلنا الفرن سوا . . . الواد سلم الورقه بتاعته للفران . . وأنا سلمت ورقتى . . جه الفران يدخل الورقتين قلت له حاسب إوعى الورقتين يتلخبطوا لحسن دول زى بعض . . والا أقول لك . . هات لما أعلمهم أضمن . وسحبت الورقتين ورحت قاطع من طرف واحده منهم حتة ورقه وقلت له : المقطوعه دى تبقى بتاعتى ، والثانيه بتاعة المعلم سلامه . . وبعدين سبت الفرن ورجعت له قرب الظهر كانت اللحمه استوت . . أخذت الورقه المقطوعه ورو حت البيت أكلت أحسن ورقة لحمه أكلتها فى حياتى .

— إيه الكلام ده ؟ إنت مش بتقول أخذت الورقه المقطوعه بتاعتك ! .

— أيوه أخذت الورقه المقطوعه لكن ما كانتش بتاعتى لأنى لما جيت أعلم الورقه قطعت ورقة المعلم سلامه .

ومنذ ذلك اليوم . . وحتى بعد انتقاله بصالونه إلى شارع خيرت والأسطى محمود يعرف كيف يرد التحية . . فلا يكاد والدى يهتف به : « هفقت مفتاح » .

حتى يجيبه بأعلى صوته : « رحت الفرن » .

فإذا سأله أحد شرح له المسألة بحذافيرها .

وقال لأبى : « واحده بواحده والبادىء أظلم » .

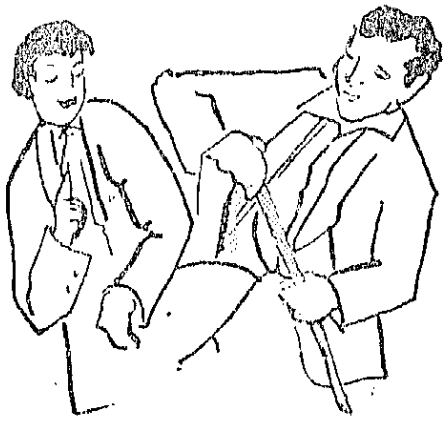

ألقى المستر تويدي نظرة عابرة على الطلاب . . وتوقفت عيناه برهة أمام الأوسطى عبده ، فقد كان الوجه جديداً على عينيه ، وكان منظر الأوسطى عبده برقبته الطويلة ووجهه الأعجف وعينيه المذعورتين ، منظراً غريباً .

الأوسطى عبده والمستر تويدي . .

obeikandl.com

رأى

أنّ هناك حديثاً يشغل الناس فى هذه الأيام كحديث الغلاء ، وعندما يتحدث الناس عن الغلاء فلن يخلو حديثهم من مقارنة بين أسعار اليوم وأسعار الأمس ، وضرب الأمثلة المتعددة على ارتفاعها الفاحش الآن وانخفاضها العجيب فيما مضى .

ولم يكن المجلس الذى ضم ثلتنا بالأمس ليختلف عن غيره من مجالس الناس ؛ فسرعان ماساقنا الحديث ذو الشجون إلى ذكر الغلاء ، وبين عشية وضحاها انقلب الحديث إلى مباراة فى ضرب الأمثلة لغلاء اليوم ورخص الأمس ، وانهالت الشكوى من النفوس مريرة ، والسخط لاذعاً حاراً .

قال أحدنا وهو يهز رأسه أسفاً :

— لقد أصبحت الحياة لاتطاق . . لم يعد هناك شىء محتملا ، لامأكل ولا ملبس . . من يصدق أنى منذ أسبوع أردت أن أفصل بدلة عند « جبای » الترزى . . فطلب منى خمسة عشر جنيهاً ، للتفصيل فقط ؟ !

فسأله آخر متعجباً :

— خمسة عشر جنيهاً ! ! الله يرحم زمان ، عندما كانت

البذلة لاتكلفنا أكثر من مائة وخمسين قرشاً قماش ، وتفصيل !

ورد عليه الأول ، وهو مهندس معروف :

— إى والله .. مائة وخمسين قرشاً ، كانت أقصى ماتتكلفه البدلة ، وكنا نستكثرها على الترزى وعلى جيوبنا فنأبى أن ندفعها إلا بالتقسيط .

وضحك الأصدقاء . . .

واندفع صاحبنا يقهقه وقد تذكر حادث مطاردة الترزى لصديقه أحمد أبو الفضل . وأخيراً تمالك نفسه وأخذ يقص الواقعة فقال :

كان ذلك منذ خمسة وعشرين عاماً ، وكنا وقتذاك طلبة فى المهندسخانة ، وقد اعتدنا أن نجتمع فى بيت صاحبنا أحمد أبو الفضل بشارع النواوى فى البغالة حيث كان بالبيت حجرة منفصلة كنا نأوى إليها للسمر والاستذكار .

وذات ليلة وقد انتظم عقد ثلتنا داخل الحجرة ، وبدأنا نستعد لمواصلة الاستذكار .. إذ طرق الباب طارق . وصاح أبو الفضل آمراً بصوته الجهورى « أدخل » ظاناً أن الطارق هو «عم محمد» البواب يحمل إلينا القهوة أو الشاى .

وهنا أطل علينا وجه شاب به كثير من ذعر وكثير من

خجل ، وجه نحيل أعجف بارز عظام الوجنتين ، غائر العينين ، وبدأ صاحب الوجه يدفع الباب ويتقدم فى الحجرة رويداً رويداً حتى مثل أمامنا . وسألناه عما يريد فقال :

ـ أنا الأسطى عبده الترزى .

ـ تشرفنا يا أسطى عبده .

وانهالت عليه التحيات والسلامات من هذا النوع التهكمى .

فلما انتهينا من تحياتنا الساخرة . . بدأ الرجل فى شرح مطلبه وتفسير زيارته ، ففهمنا منه أنه قد فتح حانوتاً للتفصيل على ناصية شارع سليم ، وأنه قد مضى عليه شهر والحالة راكدة ولم يدخل حانوته أحد ، وأنه لم يستطع أن يحصل حتى على إيجار الدكان . . ولما كنا « الأفندية » الوحيدين الموجودين فى (الحتة) فقد لجأ إلينا عسى أن نجبر بخاطره وأن (ننفعه) !

ولم يكد الأسطى عبده ينتهى من شرح حالته واستعطاف قلوبنا حتى قرن القول بالفعل وهجم علينا وفى يده (المازورة) يأخذ المقاسات المطلوبة لكل منا ويدوّنها فى نوتة صغيرة أخرجها من جيبه . . وفى غمضة عين كان الرجل قد أخذ مقاساتنا جميعاً .

ونظر أبو الفضل إلى الأسطى عبده نظرة رثاء وعطف وهو يضع المازورة فى جيبه وقد أشرق وجهه بالأمل وابتسم ابتسامة الفوز .

وأخذ أبو الفضل يشرح له قائلا :

— بقى اسمع أما أقولك يا أسطى عبده ، ماتتعبش نفسك معانا . . إحنا البدله بتاخد لها على جتتنا خمس سنين خدمة ، زى العسكرية بالضبط ، وبعدين لما تطلع رديف نبقى نفكر نفصل بدلة جديدة ، ودلوقت أقدم بدلة على أى واحد منا ماتزيدش عن سنتين خدمة . يعنى بعد ثلاث سنين ربنا يديك العمر وتيجى تزورنا إن شاء الله .

— كل خمس سنين بدله ؟ إزاى يابيه الكلام ده ! دا انتم أسياد الناس . . . أنا حااعمل لكل واحد منكم بدلة تليق بالمقام .

— المقام محفوظ يا أسطى . . بس المسأله إن العين بصيره واليد قصيره . إحنا قادرين نجيب علبة سجاير لما حانفصل بدله ؟

— دى الحسبة كلها مائة وخمسين قرشاً يابيه ، مش ضرورى تدفعهم مرة واحدة . إدفع اللى تقدر عليه . . . إدفع خمسين قرش كل شهر ، أو خمسة وعشرين .

وقبل أن نجيب الرجل ، ألقى علينا تحية سريعة ثم أولانا ظهره وانصرف هارباً .

ولم يمض أسبوع حتى كانت البذلات الخمس مستوية على أجسادنا .

وأقول الحق أنها كانت جيدة التفصيل ، فاخرة القماش وأننا رحنا نختال بها فى المدرسة كأية ثلة ارستقراطية وأن الزملاء ظنوا أننا عثرنا على كنز .

وعندما حل أول الشهر بدأ الأسطى عبده التحصيل ، فأعطاه البعض وتهرب البعض الآخر . واستمر فى التحصيل شهراً بعد شهر ، فكان كل منا يعطيه شهراً ويزوغ شهراً ، إلا واحداً منا كان يزوغ على طول الخط فلم يعطه من ثمن البذلة مليما واحداً .

أجل ، لقد كان أبو الفضل أكثرنا اختيالا بالبذلة ، وأكثرنا هرباً من الرجل ، وفراراً من الدفع .

كان لأبى الفضل مطالب خاصة كثيرة تستنفد كل مصروفه ، فقد كان مدمناً على السجاير ، وكانت له (غطسات) فى « أمكنة ما » تستنفد منه ما تبقى من النقود بعد ثمن السجاير ، ولذا فلم يحدث قط أن توفر فى جيبه مايستطيع أن يسدد منه قسط البذلة .

ولم يكن الأسطى عبده من النوع الذى ييأس أو يكل ، بل كان ملحاحاً مثابراً يطارد صاحبنا فى كل حل وترحال . . لاتكاد الشمس تؤذن بالشروق حتى يتخذ مكانه على باب البيت ، فيظل مرابطاً حتى الضحى ، وحتى يكتشف أن أبا الفضل قد هرب من إحدى النوافذ . فإذا ما كان اليوم التالى رابط تحت النافذة ، فيفر أبو الفضل من الباب ، وهكذا يستمر الأسطى عبده فى المطاردة حائراً بين النافذة والباب حتى يصمم أخيراً أن ينقل ميدان المطاردة إلى المدرسة ، فيفاجىء أبا الفضل ذات صباح أمام باب المدرسة .

ومازلت أذكر ذلك اليوم جيداً وقد أشرفنا على المدرسة وسار أبو الفضل بيننا يعلننا مفاخراً أنه قد عرف كيف يدوخ الأسطى عبده حتى يئس منه ومن مطاردته له وأنه اليوم قد خرج من البيت فإذا بالحصار قد فك ، وإذا بالعدو قد عاد إلى قواعده فى شارع سليم !

ولم يكد أبو الفضل يتم حديثه حتى برز لنا الأسطى عبده من وراء شجرة ضخمة بجوار باب المدرسة كان يختفى وراءها .

وكان هجومه على أبى الفضل مفاجئاً ، أصابه بغير قليل من الاضطراب والارتباك ، ولكنه سرعان ماتمالك نفسه

وهدأ روعه ، ومد يده للأسطى عبده مرحباً . . وقال فى بشاشة :

— أهلا . . أهلا الأسطى عبده ، فينك من زمان ماحدش بيشوفك . . أنا كنت لسه جايب سيرتك عشان عايز أديك قسط البدلة . أنا محضر ولك فى البيت . ابقى فوت علىّ فى أى وقت .

— بيت إيه يابيه ! دا انت دو ختنى تحت البيت وحيرتنى من الباب للشباك . دا انت مقابلتك نادرة من نوادر الزمن . أنا حافضل معاك لغاية مانرجع البيت سوا .

— مفيش لزوم تعطل نفسك يا أسطى عبده . . أنا ماحبش أعطلك .

— أبداً ، أبداً ، مفيش عطله أبداً ، حاستنا لغاية مانرجع سوا .

— نرجع سوا ؟

— أيوه . . نرجع سوا .

ولم يكن أبو الفضل ليغلب على أمره ، فوافق الرجل على أن يبقى معه ، وسأله أن ينتظره خارج المدرسة آملا أن يخدعه ويستطيع (التزويغ) من باب آخر ، فقال له ببساطة :

— طيب يا أسطى عبده ، أمرك . . مادام عايز تستنانى خليك مستنى . أقعد على البوابة لغاية ما اخرج .

— بوابة مين ؟ إيدى فى إيدك . . أنا مش حاخليك تتورب عن عينى . دانت لقاك مش بالساهل . أنامافرطش فيك أبداً بعدما التقيتك .

وكنا قد وصلنا إلى باب المدرسة واجتزناه ودلف معنا الأسطى عبده .

ورأى أبو الفضل أن من الخير أن يتجنب الفضيحة وألا يحاول حجز الرجل على الباب بالقوة ، فتركه يدخل معنا . . .

ووصلنا إلى الفصل ، ودخلنا والأسطى عبده فى أعقابنا وجلسنا على التخت ، وبجوار أبى الفضل جلس الأسطى عبده ، مصراً على أن لايتركه لحظة واحدة .

وكانت الحصة الأولى عندنا فى ذلك اليوم رياضة ، وكان مدرس الرياضة وقتذاك فى المهندسخانة هو المستر تويدى . وكان الرجل نظامياً جاداً . وكانت حصته هى الوحيدة التى نجلس فيها منتظمين ويجلس كل طالب فى مكانه المخصص له وفى نمرته التى أعطاها له المستر تويدى .

وكانت الحصة تبدأ فى التاسعة ، ومن عادة المستر تويدى

أن يكون في الفصل في بدء الحصة بالضبط فيغلق الباب وراءه بعد دخوله . . ثم يفتحه في الساعة التاسعة وخمس دقائق ليدخل المتأخرون ويغلقه بعد ذلك فلا يفتحه إلا في نهاية الحصة ، وهكذا كان يعطي للطالب فرصة للتأخير خمس دقائق أما بعد ذلك فلا يقبله في حصته .

وفي التاسعة بالضبط كان المستر تويدي يجتاز باب الفصل ، وكان كل منا قد جلس في مكانه صامتاً ساكناً لا ينبس ببنت شفة واضعاً أمامه على الدرج الكتب المطلوب استعمالها في الحصة .

وكان الوحيد الذي لا يضع أمامه كتباً هو الأسطى عبده الترزي ، وقد خشي أبو الفضل أن يكشف المستر تويدي أمره فأزاح كتبه من أمامه ووضعها أمام الأسطى عبده . . .

وهكذا جلس الأسطى عبده على مقعده — كأحد الطلبة — جاداً صامتاً وأمامه الكتب المطلوبة في درس التفاضل والتكامل .

وكان المستر تويدي انجليزياً مهيب المنظر ، أحمر الوجه أشعث الشعر ، فارع القامة ، يزيد من مهابته منوكل يضعه على إحدى عينيه .

ولست أشك فى أن الأسطى عبده قد تملكه من منظر المستر تويدى جزع شديد ، فقد رأيته يحملق فيه وقد اصفر وجهه ، وأحس بمدى حرج مركزه .

وألقى المستر تويدى نظرة عابرة على الطلاب ، وتوقفت عيناه برهة أمام الأسطى عبده فقد كان الوجه جديداً على عينيه ، وكان منظر الأسطى عبده برقبته الطويلة ووجهه الأعجف وعينيه المذعورتين اللتين تترجرجان فى وجهه . . منظراً غريباً .

ولكن المستر تويدى لم يقل شيئاً ، فقد ظن الأسطى عبده طالباً جديداً ولاسيما أن كتبه كانت موضوعة أمامه.

وكان من الممكن أن يمر الدرس بسهولة على الأسطى عبده لو أن المستر تويدى كان كبقية خلق الله من مدرسى المهندسخانة الذين يلقون المحاضرة على الطلاب ثم يغادرون الفصل بسلام . . .

ولكنه لم يكن كذلك ، بل كان يأبى إلا أن يبدأ درسه بالسؤال فى الدروس السابقة ماراً على الطلبة ملقياً على كل واحد منهم سؤالا بالدور .

وبدأ المستر تويدى أسئلته فى التفاضل والتكامل ووصل الدور إلى الأسطى عبده .

وانطلق السؤال من المستر تويدى الأحمر المهاب ذو المنوكل ليستقر على الأسطى عبده الغلبان الكحيان الذى ينتفض ويرتجف .

ووقف الأسطى عبده الترزى ليجيب على سؤال عويص فى التفاضل والتكامل .

وكانت إجابة السؤال على ما أذكر (د . س) على (د . ص) ، وكانت بطون الطلبة تصطخب بالضحك . وبدأت المحاولات لإنقاذ الأسطى عبده فأخذت الأصوات تهمس من حوله بالإجابة قائلين له :

— شد حيلك يا أسطى عبده .. ما تخافش .. المسأله بسيطه خالص .. قول (د . س) على (د . ص) .

ولكن المسألة لم تكن بالنسبة للأسطى عبده بسيطة قط ، ولم يستطع ذهنه أن يقتنع أو يفهم حكاية (د س) على (د ص) .. ولكنه أمام نظرات المستر تويدى النارية المصوبة إليه ألقى الإجابة حسب مايمكنه أن يفهمها ، فقال وهو يرتجف :

— دى س ودى ص .

واقتنع المستر تويدى وأشار له بالجلوس ، وظلت الأسئلة تلف ثم تستقر مرة أخرى على الأسطى عبده

حتى (نشف دمه) وبقى كريشة فى مهب الرياح ، وكانت تتعالى الأصوات هامسة حوله بالإجابة فيلتقطها كالببغاء ويطلقها متوكلا على الله ثم يرتمى على المقعد غارقاً فى عرقه ، حتى انتهت الحصة ، وانتهى معها الأسطى عبده .

إى والله . . لقد أغمى على الأسطى عبده بعد خروج المستر تويدى ، وعندما أفاق بكى بكاء حاراً ، وأقسم يميناً ألا يدخل مدرسة المهندسخانة بعد ذلك ، وألا يطالب أبو الفضل بقسط البذلة .

وأثر فينا بكاء الرجل . فاكتتبنا كل منا بخمسة قروش وجمعنا له ثمن البذلة .

وكانت آخر مرة يحاول الأسطى عبده التفصيل لنـــا بالإكراه .

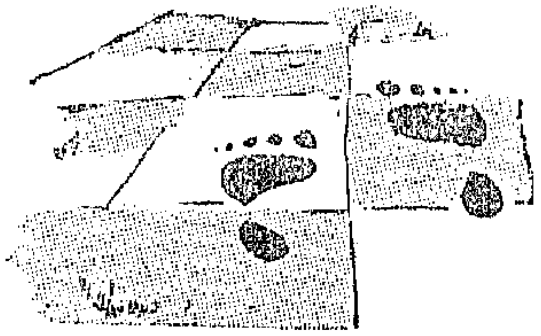

قبل أن أبدأ السرد أقدم اعتذاري الى بطل القصة — عمى ، وحماى — « طه السباعي باشا » لأني لم أستأذنه فى النشر راجياً اياه ألا يصدر بياناً يكذبنى فيه .. لسبب بسيط .. هو أن الناس تعلم تماماً أنه ليس هناك أكذب في هذا البلد . . من بيانات التكذيب .

في بيت معاك ..

obeikandl.com

القصة والعربة عائدة من الإسكندرية تنهب الطريق الصحراوى نهباً ، والسائق ينتهز فرصة سهو العم بين آونة وأخرى ، فيقفز برقم عداد السرعة إلى ما فوق المائة .. حتى وصلت العربة مدخل القاهرة وأخذت تتلوى فى طريق الهرم ، بين حفر مصلحة التنظيم وخنادق مصلحة المجارى ، ومن آن لآخر تعترض العربة علامات الخطر ، وتصطدم الأعين بعربة مقلوبة فى إحدى حفرات المجارى أو مصطدمة بأحد فوانيس النور فوق الرصيف .

ووصلنا أخيراً إلى البيت فى منشية الطيران . . متعبى الأعصاب منهكى الأجساد .

وهبطنا من العربة ، وعبرنا الحديقة إلى باب البيت وأخذت أتحسس ثقب الباب فى الظلمات حتى دسست فيه المفتاح ثم دفعت الباب . . وبدأنا نتلمس طريقنا فى حذر وخشية ، وسمعت العم يقول :

ـــ أكباس الكهرباء موضوعة أمامك على الكرسى الموجود أسفل السلم . . لقد وضعتها بيدى قبل السفر .

وبعد برهة قصيرة كنت أضع الأكباس فى محلها الواحد بعد الآخر .

كان نزع الأكياس هو أول شيء يحرص عليه العم حتى لا يحدث مس فى أسلاك الكهرباء فينتج عنه ـ لاسمح الله ـ حريق يودى بالبيت . . وكان ثانى شيء هو إغلاق عداد المياه .

ولم أكد أعيد الأكياس إلى محلها حتى أضاءت الكهرباء معظم حجرات البيت ، فقد كانت مفاتيحها غير مغلقة .

وقبل أن أطفيء اللمبات التى لانحتاج إلى ضوئها وجدت العم قد أخذ يتجول متمهلا فى أنحاء البيت ، وهو يلقى عليه نظرة إعجاب ، ثم مد سبابته فمسح بها إحدى المناضد ثم مسح بها الأرض وأخذ يمر بها على الأثاث قطعة قطعة ، وأخيراً قال وهو يهز رأسه فى خليط من تعجب وأسف وغبطة :

ـ أنظر . . لا أثر هناك للتراب .

ومسحت بأصبعى أنا الآخر على أقرب شيء إلىّ وقلت موافقاً :

ـ أجل ! لا أثر للتراب .

ـ شهران . . والبيت متروك بلا نظافة ومع ذلك فلا أثر فيه للتراب . . ثم يصرون بعد هذا على نظافته كل يوم . . مجانين ، مصابون بجنون النظافة . . إنهم يقومون بالنظافة لمجرد المتعة ، إنها عندهم هواية ، أو طريقة لإغاظتنا والتنكيل

بنا . . وإلا فما معنى تنظيف الشيء النظيف ؟ . أتعرف أنهم في عز الشتاء يدخلون الخادم يومياً بجردل المياه لمسح الشرفات دون أن يكون بها أثر للتراب وحاولت أن أمنعهم عن هذا الجنون عبثاً ، حتى انتهى بي الأمر إلى أنه ليس هناك وسيلة إلا بإزالة الشرفات كلها من البيت ؟

ووقفت أنصت إلى حملته عليهم — أو على الأصح عليهن — وأنا أؤمن مخلصاً على كل فقرة فيها .

وكانت هم . . أو هن . . هذه عائدة بالطبع على أهل البيت من النساء . أعني زوجته وزوجتي ، أو بعبارة أخرى حماتي وابنته .

وكنا متفقين تماماً في مسألة النظافة هذه ، وكنا متفقين تماماً أن أهل البيت من الحريم مصابون — بلا جدال — بداء النظافة . . يؤيدنا في ذلك زوج الإبنة الأخرى . . عديلي وابن عمتي الأستاذ عبد العزيز مهران ، الذي لم تعد له في حياته إلا أمنية واحدة . . وهي أن يهيء الله له فرصة الاستمتاع بحرية الفوضى والقذارة ، والذي فكر فعلا في أن يستأجر شقتين ، شقة لتنظفها زوجته ، وشقة يعيش فيها مستريحاً كبقية خلق الله الذين لم يصابوا بجنون النظافة .

ولقد كنا — أنا والعم — أسبق منه إلى تحقيق هذه

الأمنية . . وهى أمنية الاستمتاع بحياة الفوضى والأتربة والقذارة .

كانت عودتنا من الإسكندرية وحدنا بلا حريم لقضاء بعض المهام فى القاهرة ، وكانت هذه المهام تستغرق مايقرب من أسبوع .

وكان فى هذا الأسبوع كل الكفاية ، لنتحرر من قيود النظام والترتيب والنظافة .

فقد انطلقنا نعيث فى الدار فساداً . . وأقول الحق ، أن العم العزيز أثبت جدارة فى هذا المضمار يستحق عليها وساماً وأثبت أنه لايشق له فى ميدان الفوضى والهرجلة والغبار — غبار .

لقد فاز علىّ فى سباق الفوضى ، فوزاً مبيناً . . جعلنى أيأس من الاستمرار معه فى ميدان السباق . . بل جعلنى أكره — فى مدى يومين — الفوضى التى كنت أتوق إليها منذ أعوام ، ولم أنسحب من السباق فحسب ، بل انقلبت إلى إنسان مرتب أشبه بحريم الدار ، أجرى وراءه لألم شعث ما فرق ، وأنظم ما لخبط وما بعزق .

لقد وصلنا فى المساء حوالى الساعة الثامنة .. ولم يحاول أحد منا الخروج . . فكلانا مبكر فى نومه .. وزادنا التعب

رغبة فى النوم وزيادة فى التبكير ، فلم تدق التاسعة حتى كان كل منا قد آوى إلى فراشه .

ومع ذلك . . وفى مدى تلك الساعة التى قضيناها فى الدار منذ الوصول حتى النوم . . أعان الله العم على أن ينزل بالدار المرتبة كمية لا بأس بها من الفوضى والهرجلة . . كدفعة أولى .

وفى الأيام التالية بدأ التفنن وإخراج الروائع والآيات .

لم نكن نلتقى إلا فى الصباح وفى المساء ، وقت الصحو أو النوم ، وكان كلانا يضرب طول النهار فى مشارق الأرض ومغاربها ، فلا نكاد نستقر فى الدار — ونحن على حال من اليقظة — إلا لماماً . . ومع ذلك — ولا أدرى متى ولا كيف — تمكن العم من إخراج روائعه وإشاعة الفوضى المثالية والتخريب النموذجى فى أنحاء الدار .

وقبل أن أصف روائع الفوضى ، والتخريب «والتوسيخ» أجد لزاماً علىّ وإحقاقاً للحق ، ووضعاً للأمور فى نصابها أن أذكر ما قمنا به من أعمال التعمير والإعاشة .

كان أول مافعلنا . . غير وضع أكياس الكهرباء وفتح محبس المياه ، هو تشغيل الثلاجة وملء زجاجات المياه التى بها وشراء كمية من العنب والمانجه وصندوق بيبسى كولا ،

ووضعها فى الثلاجة على سبيل التموين، وخزن الزاد والزواد .

وكان هذا الزاد والتموين هو العامل الأكبر فى إشاعة الفوضى فى البيت ، والمادة الأساسية التى أعانت العم على رسم روائعه .

لقد قلت أنه عند ما وصلنا ، لم يكن هناك أثر يذكر للأتربة . ولكن الذى حدث — وبعون من الله وبمساعدة العم — هو أننا لم نكد نستقر فى الدار يوماً أو بعض يوم حتى وجدنا الأتربة تعلو وتتراكم . . وإذا بالحجرات قد أضحت أشبه بالخرائب .

وهكذا وجد من الأتربة الأساس الملائم .. أو « الباك جراوند » المناسب .

لقد كست الأتربة كل مافى البيت .. أعطته لوناً رمادياً مغبراً لا يكاد يستبين منه لونه الأصلى . . اللهم إلا من خلال آثار الأقدام المرسومة على الأرض ، والتى انتقلت أتربتها فاستقرت فى أقدامنا ، أو من خلال الرسوم الأخرى التى انطبعت تحت كل المنقولات المتحركة على المناضد أو الأرض ، فقد كان كل شىء يطبع رسمه تحته حتى كأننا نعيش فى الصحراء .

وفوق هذه الأتربة بدأ المنظر الرائع الآتى :

إحدى عشرة زجاجة بيبسى كولا فارغة مستقرة فى كل مكان يخطر على البال . . واحدة فوق الفراش ، واثنتان تحته ، وواحدة فوق المدفأة ، واثنتان فى داخلها ، وواحدة فوق المنضدة ، واثنتان متدحرجتان على بطنهما ، تدفعهما أقدامنا كلما جلسنا إلى المنضدة .. وهكذا كانت الزجاجات الفارغة تطالع البصر فى كل مكان : على الأرفف والأرائك والمقاعد . . أما غطياتها فكانت عشرة منها ترصع أنحاء البيت كأنها الأوسمة والنياشين . أما الواحد الباقى فهو مازال محشوراً فى فتاحة الزجاجات . . لم يفكر أحد فى نزعه من مكانه .

ويتبادل الفوضى مع الإحدى عشرة زجاجة — أو الأحد عشر كوكباً — سبعة أطباق مليئة بالماء العكر الأسود وراسب الطين ، ومخلفات عناقيد العنب من بذور وقشور وبقايا عنب عفن .. هذه الأطباق كانت من قبل مرصوصة نظيفة بيضاء فسحبت الواحد بعد الآخر لأجل أكل العنب فغسل فيها العنب ، وبقيت هى دون أن تغسل . . سوداء « ملحوسة » لزجة .

تلك هى بقايا العنب . . تعاونها فى إعداد تابلوه الفوضى والقذارة .. مخلفات المائدة . . بذورها « المبدورة » فى أنحاء

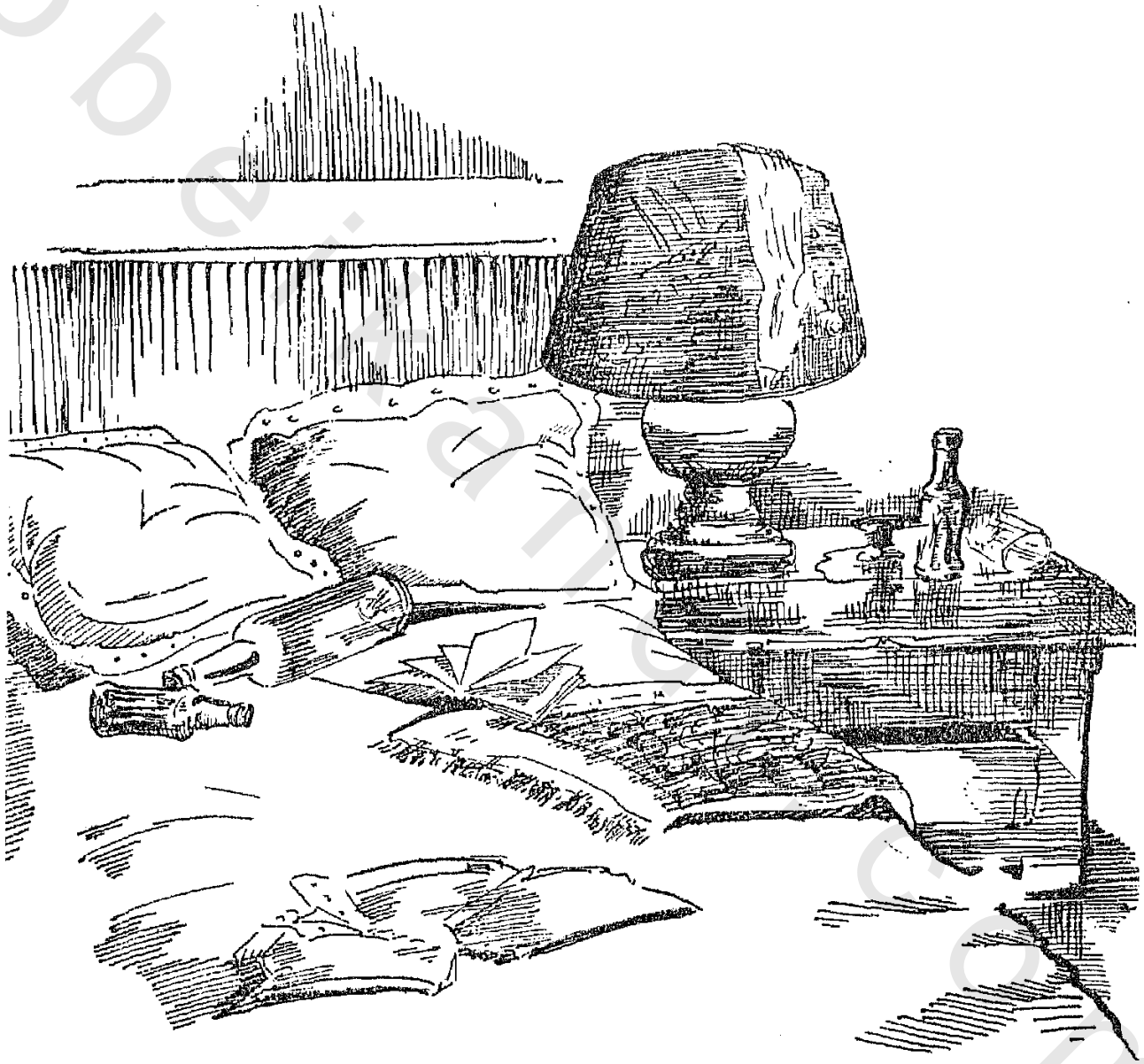

البيت كأنما قد انقلبت أرضه حقلا لزراعة المائجه ، وبالقشور الملقاة هنا وهناك وبماء المائجه السائل فى لزوجة على المنضدة والأرض المختلط بالأتربة .. وبين كل هذه المخلفات العجيبة تجد فردتى الحذاء والشراب . . مستقرة فى فراقها الخالد . . ونفورها الأبدى .

وتتم المنظر الرائع ، أوراق الصحف المتحركة المرفرفة المتسابقة على الأرض والظروف الممزقة والأوراق القديمة التى كتبت عليها مقالات أو بقايا مقالات .

ولكى يصبح المنظر الرائع ، شيئاً فريداً . . كان لابد من أن تكسر ملة السرير — دون أن يفكر أحد منا بالطبع فى إصلاحها — فيميل على جانبه ، ويصبح السرير غير صالح إلا للدحرجة والدأجة . . ويعلم الله كيف ينام العم العزيز .

وهكذا تمت الروعة ، ولكنها كانت روعة صامتة . . تحتاج إلى بعض الموسيقى لتكون تامة المعانى كاملة الإخراج .

وقدم الموسيقى فى هذا المنظر الفوضوى صنبوران للمياه . . صنبور تلفت جلدته فأخذت المياه تنسكب منه النقطة تلو النقطة ، على الواحدة .. والصنبور الآخر ، لست أدرى ماذا أصابه حتى أخذ يزن بصفة مستمرة كأنه الناى أو صفارة الإنذار العاطلة .

هذا هو التابلوه المترب الرائع الذى أجبرنى على شراء زوجين من الشباشب ـ وكان هذا من ضمن أعمال التعمير ـ بعد أن تعذر علينا الخوض فى الأتربة وتعذر علينا أن نجد الشباشب القديمة ، وتعذر علينا كذلك أن نبقى بالأحذية حتى ساعة النوم وأن نلبسها بمجرد الهبوط من الفراش .

وأخيراً انتهت أعمالنا التى حضرنا من أجلها إلى القاهرة وعزمنا على السفر وجلسنا فى الليلة الأخيرة نمتع البصر بمنظر الفوضى والقذارة الذى بلغ أقصى روعته ، ووددنا أن يعرض المنظر على أهل البيت من الحريم حتى نتشفى منهن وحتى نرين كيف انتقمنا لأنفسنا .

وأنبأنى العم أننا سنسافر فى ساعة مبكرة ، حتى نقطع الطريق فى «طراوة» الصباح قبل أن ترتفع الشمس ويبلغ الحر أشده ، وحدد للسفر الساعة الرابعة والنصف صباحاً وطلب منى أن أجهز نفسى من الليل وألا أنسى شيئاً حتى لا أسبب له عطلا فى الصباح ، وأعطانى محاضرة قيمة فى ترتيبات السفر . . ولم ينس أن يذكرنى بمحبس المياه . . وأكباس الكهرباء .

وجهزت حقيبتى وأعددت كل ما أنوى أخذه فى السفر مما كلفونى بإحضاره من البيت ، وفى الساعة الرابعة صباحاً

استيقظت من النوم فوجدت العم قد استيقظ . . وسرعان ما حلقت ذقنى وارتديت ملابسى . . وأصبحت على أهبة الاستعداد ، وأخذت أراجع نفسى حتى آخذ كل ما أود أخذه ، فقد كنت لا أريد أن أسبب ـ بنسيانى حاجة ما ـ أى تعطيل أو تأخير .

ونزل هو إلى الحديقة فهز شجرة الجوافة وجمع ماسقط من الثمار ليأخذها معنا ، ثم حملنا كل حاجياتنا فى العربة . . ونزعت أكياس الكهرباء . . وأخذت أتحسس طريق إلى الخارج ، فقد كان الظلام مازال مسدلا ستوره ، وأغلقت الباب بالمفتاح ووضعته فى جيبى . . وهممت بركوب العربة عندما صاح عمى :

ـ إنتظر . . لقد نسيت العصا .

وكان علىّ أن أعود لأحضر العصا ، وأن أفتح الباب وأن أضع الأكياس وأصعد إلى أعلى فأحضرها له .

ودارت الفكرة فى رأسه ويبدو لى أنه أحس ببعض الخجل من أنه هو الذى سيكون السبب فى التعطيل ، وأنه هو الذى نسى . . رغم أنه حذرنى من النسيان وعلمنى الحذر فى ترتيبات السفر .

وسرعان ما غير رأيه وصاح بى فى غير اهتمام :

— هيا بنا .. نحن لا نريد أن نتعطل ، لا داعى للعصا .. وأظن أنه يوجد غيرها فى الإسكندرية .

واتخذنا مجلسنا فى العربة ، وأخذت فى التحرك بعد أن تنازل عن العصا حتى لا يكون سبباً فى تأخيرنا بضع دقائق .

ونظر فى الساعة وقال :

— الساعة الخامسة إلا ثلث .. موعد مبكر .. أظننا نستطيع أن نصل — بالراحة — إلى البيت فى الساعة التاسعة ؟

وصدقت على قوله بقولى :

— أظن ذلك إذا لم يحدث عطل .

— إن شاء الله لا يحدث شىء .

وكنا قد بلغنا — عند ما قال قوله هذا — بيت مكرم باشا وبينه وبين بيتنا ما يقرب من محطتى ترام .. ولكنه لم يكد يتم قوله أو على الأصح تمنيه ودعوته حتى صاح كأنما قد تذكر أمراً هاماً :

— لقد نسيت دفتر الشيكات .

وتمهل السائق بعض الشىء .. وتوقعت أن يأمره العم بالعودة ، ولكن الفكرة دارت فى رأسه مرة أخرى .. وبدا عليه التردد وأخذ يوازن بين دفتر الشيكات .. وبين محاضرته عن ترتيبات السفر ، وعدم النسيان ، وعدم الرغبة

فى التعطيل . . وأخيراً صاح بالسائق :

— سوق على طول . . لست فى حاجة إلى الدفتر . . إن معى من النقود ما يكفى ، ولا أظننى سأحتاج إليه .

وهكذا مرت سليمة ، وتنفس كلانا الصعداء ، واستمرت العربة فى طريقها إلى شارع الهرم . . وحمدنا الله على أن ما نسى كانت أشياء بسيطة . . ولم يكن هو — على حد قوله — فى حاجة إليها .

وقطعنا شارع الملكة نازلى . . ووصلنا إلى ميدان الإسماعيلية ، وعبرنا كوبرى قصر النيل ، وقد اضطجعنا فى مقاعدنا مستريحين هانئين ، نحسب فى أذهاننا الساعة التى سنصل فيها ، وكيف ستكون مبكرة إلى حد أنها ستفاجىء الأهل .

وفجأة رأيت العم يميل إلى الأمام . . ويصيح بلا تردد ولا تفكير :

— موسى . . دوّر ، عد بنا إلى البيت .

وتلفت إليه فى دهش شديد ، متسائلا عما حدث . . فأطرق برأسه ، وقال فى يأس :

— لقد نسيت حقيبة ملابسى .

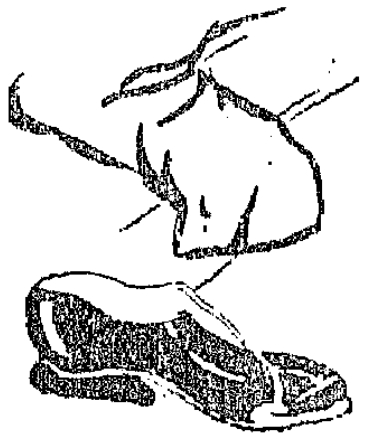

وأصبح صباح العيد.. وخرجت مع الأطفال أتفخ فى الزمارة وأنا أرتدي الردنجوت وقد شمرت — جدتي — أكمامه، وثنت ساق البنطلون، وأخذت أتنقل اهوينا بقدمى (بلق) فى الحذاء، وكأنى ألبس مركباً !!

فى ردنجوت..

أهمر ٠٠ وسهلا سعادة الباشا . . .

— أهلا بك . . إزيك يا أستاذ . . .

— الحمد لله . . إلى الإسكندرية إن شاء الله ؟

— إن شاء الله . هذه أول مرة أسافر فيها هذا العام بالسكة الحديد . . فالطائرة توفر كثيراً من الوقت .

— ولكن الأرض أضمن « أنل قدمى ظهر الأرض أنى »

— ياسيدى . . العمر واحد والرب واحد .

وهكذا استمر الحديث يجرى بيننا تافهاً متقطعاً . . . حديث لقاء عابر فى قطار . . وكنا نجلس فى عربة تكييف الهواء فى القطار السريع المسافر إلى الإسكندرية يحيط بنا جو من الفخامة والأبهة يصعر الخد وينفخ الأوداج . ويملأ بالكبرياء أشد الناس تواضعاً ، وينفخ بالارستقراطية أحطهم قدراً وأوضعهم شأناً .

واضطجعت فى المقعد اللين الوثير ووضعت ساقاً على ساق . . فقد كانت تلك هى أقل جلسة يمكن جلوسها فى هذا الجو الفاخر ، ولاسيما أن الباشا محدثى كان قد اتخذ هذا الوضع وعلق ساقاً على ساق رغم تعذر هذه العملية عليه لقصر ساقيه وانتفاخ بطنه .

ويبدو لى أن من الخير — قبل أن أمعن فى السرد — أن أزيل من ذهن القارىء ما قد يكون علق بذهنه من وهم خاطىء عن الباشا الذى نحن بصدده . فيظنه مما قلت عن باشاويته وقصر ساقيه وانتفاخ بطنه أنه أحد تلك الأشكال الثرية الخنزيرية الغبية المتعجرفة الثقيلة الدم الخ .

لا .. لا .. لم يكن صاحبنا قط بالثقيل ولا الدعى ولا المتعجرف . . على النقيض من ذلك كان نموذجاً للذكاء واللطف وخفة الدم وطلاوة الحديث .

كان عبدالعزيز باشا عمران أحد رجال المال والأعمال المعروفين فى البلد . . لايزيد عمره على الخامسة والأربعين وهو يملك عدة شركات مختلفة . . بينها بضع شركات للأوتوبيس والدوبارة وغطيان الكازوزة ، وهو كذلك أحد مهندسينا الناجحين النابهين الذين ركلوا وظيفتهم الحكومية وملكوا ناصية العمل الحر . فصالوا فيه وجالوا ، وتلألأ نجمهم وعلا صيتهم ، وأصبح يشار إلى قدرتهم ونبوغهم بالبنان .

وكنت أقدره مما أسمع عن فرط ذكائه وشدة عبقريته فلما لقيته زاد تقديرى له . . لما رأيته من خفة دمه ودماثة خلقه . . .

وأخذت أرقبه وقد جلس فى مقعده ووضع بين شفتيه سيجاراً طويلا . . وتدلت من صديريته سلسلة ذهبية . . وبدا وجهه منتفخاً ، ووضع على عينيه منظاراً رقيقاً ذا إطار ذهبي أنيق ، وداخلنى من منظره إعجاب كثير . . وقلت لنفسى : إن مثل هذا الرجل جدير بالاحترام . . فقد كسب مركزه وثراءه بجهده وذكائه . . وأن مخلوقاً موهوباً مثله كان لابد أن يلقى مالاقى من نجاح .

وانحدر بصرى من وجهه إلى جسده . . إلى ساقيه . . وقد وضع إحداهما فوق الأخرى . . فشمر بنطلونه وانحسر عن جوربه الحريرى النايلون ، وجزء من ساقه الجرداء السمراء ، وبدت لى قدمه صغيرة كقدم الطفل وقد دسها فى حذاء (باللى) فاخر أنيق ، وأخذ يهزها هزات خفيفة . . .

وظل الحديث يجرى بيننا متقطعاً . . سؤال من هنا . . وجواب من هناك . حتى خطر لى أن أسأله عن قصة نجاحه . وعن مظاهر النبوغ فى أطوار حياته . . طفولته . . وصباه وشبابه . . إن حياة مثل هذا الرجل يمكن أن تكون درساً نافعاً لجيل بأكمله ، وهممت بالسؤال عندما لمحت قدمه تكف عن الاهتزاز ، ورأيت أصابعها تتحرك داخل الحذاء

كأنها فى ضيق . . ثم أبصرت بيده تمتد إلى كعب الحذاء فتخلعه برفق ثم تسحبه من القدم قليلا لكى تعطى للأصابع فرصة التحرر ثم تعود يده إلى مكانها من جيب صديريته تاركة الحذاء يتأرجح معلقاً على أصابع القدم .

ووجدت الرجل يبتسم عندما رآنى أرقب عملية نزع الحذاء ثم تمتم معتذراً :

— لامؤاخذه . . أحب أن أريح قدمى قليلا . . إن الحذاء ضيق بعض الشىء .

— العفو ياسعادة الباشا . . خذ حريتك .

— إنى دائماً ألبس حذاء ضيقاً .. فليس أبغض إلىّ من الحذاء المتسع . . إنها عادة قديمة . . قديمة جداً .

ثم انطلقت منه قهقهة عالية وأخذ يهز رأسه ويقول :

— زمن ! . .

وانتظرت منه أن يفسر قوله ويشرح عادته القديمة فى كرهه للحذاء المتسع ، وأن يعقب على عجبه من الزمن ببعض الإسهاب . . ولكنى وجدته يصمت ، وسمعت بدلا من صوته . . صوت شخير قد علا بجواره .

ونظرت إلى صاحب الشخير فإذا به عجوز قد راح فى سنة من النوم ، ورأيت الباشا ينظر إليه ثم يستغرق فى الضحك

مرة أخرى ويعود إلى لهجته الساخرة قائلا :

ـ دنيـــا .

ويبدو أن الرجل قد لمح على وجهى بعض علامات الضيق الناتجة من إغراقه فى الأقوال المبهمة والسخرية الغامضة ومن تعجبه من الدنيا ومن الزمن . . فقد بدأ يفصح قائلا :

ـ الحذاء المتسع ، وما أدراك ما الحذاء المتسع . . لقد كان مصدر شقائى فى با كورة الحياة . . كان أكبر مصيبة رزئت بها .

وعاد الرجل إلى الضحك . فلم أملك سوى أن أستغرق معه فى الضحك . . حتى بدأ يتمالك نفسه قائلا :

ـ كان ذلك منذما يقرب من أربعين عاماً ، وكنا نقطن وقتذاك بالدرب الأحمر فى حارة الروم . . وقد ضمنا جميعاً بيت كبير حوى جميع أفراد العائلة ، وكان رأس العائلة جدنا الكبير ـ والد أمى ـ تاجراً بالغورية . . يعيش من أولاده خالى الأكبر وخالى الأصغر وأمى . . وكان أبى قد توفاه الله . . . وحل بنا أحد الأعياد فطلبت جدتى من الخال الأصغر ـ خالى طه ـ وهو أعقل أفراد العائلة وأكثرها اتزاناً أن يتولى شراء ملابس العيد لى .

وكان لخالى طه — من يومه — نظريات رفيعة فى فن الاقتصاد ويبدو لى أنه قد أبى إلا أن يطبق نظرياته الرفيعة — التى كانت مداركنا أعجز من أن تفهمها وقتذاك — فى عملية شراء ملابسى المتواضعة فقد خرج إلى السوق يجول جولة بين الغورية والموسكى ليبتاع لى بذلة العيد وحذاءه ولم يحاول أن يصطحبنى حتى لا أعرقل حركته . . وخاصة أنه لم يجد هناك مبرراً لعملية القياس ، فقد كان يعرف مقاسى بالنظر . واستمر ينتقل من دكان إلى دكان . . دون أن يجد البضاعة الملائمة أو السعر الملائم . . حتى وقف فجأة أمام بذلة معلقة فى أحد الدكاكين .

عجيب . . ! هذا سعر لا يصدق . . إنها صفقة هائلة ! كيف يمكن هذا . . لا شك أن صاحب الدكان قد أخطأ السعر . . ليدخل إذن ، ويتحقق بنفسه .

ودخل الحانوت وسأل صاحبه . . فأجابه أن السعر مضبوط لا لبس فيه ولا خطأ .

مدهش . . ! خمسة وسبعون قرشاً لبذلة ردنجوت ! .

لقد قال التاجر أن صاحبها قد وجدها ضيقة عليه . . . وأنه لهذا أبى استلامها ، وأنه يعرضها للبيع .

خمسة وسبعون قرشاً . ! يابلاش ! .

إنها صفقة هائلة . . لا بد من شرائها .

إنها قد تكون بالنسبة لى واسعة فضفاضة . . ولكن لاشك أنه يمكن استعمالها . . ولايغرب عن البال أننى صبى وفى دور النمو ، وأن حجمى يتزايد . . وقد أنمو فى العام القادم فجأة . . فتصبح البدلة محبوكة علىّ .

ولكنها . . رديئة : وأنا طفل !

وأى ضير فى ذلك ؟ هل هناك قانون يحرّم على الأطفال لبس الرديئة ؟ .

لا . . لا . . يجب ألا يتردد فى شرائها .

وهكذا أقدم على شرائها . . لمجرد أنها فى حد ذاتها صفقة رابحة . . بصرف النظر عن صاحب البدلة . . . وصلاحيتها له .

أجل . . إننى يجب أن أنمو حتى أصبح ملائماً للبدلة . . لأنها بدلة متينة ورخيصة ، وحرام أن تضيع من يدنا . . .

وهكذا تم شراء البدلة . . أما الحذاء فقد كانت نظريته فيه لاتقبل المجادلة .

لقد كان يعتقد أن قدمى دائمة النمو ، وأن حذائى الجديد يجب أن يكون أكبر بعدة نمر حتى لايضيق علىّ ويصبح غير صالح للاستعمال قبل أن يبلى . !

وبمثل هذه النظرية ابتاع لى الحذاء .

وعاد إلى البيت يحمل الردنجوت والحذاء الكبير .

لقيته جدتى مذهولة ، واستفسرت مستنكرة عما أحضر . . فأنبأها بلهجة الواثق إن هذا خير ما يصلح لى .

وكان من العبث مناقشته ، ولم أكن أنا نفسى — ككل طفل — أهتم بنوع الملابس أو مقاسها ، بقدر ما أهتم بها كأشياء جديدة . وكانت فرحتى بها ولهفتى على ارتدائها تجعلنى أرفض أية محاولة لإرجاعها أو مناقشة فى عدم صلاحيتها .

وأصبح صباح العيد . . وخرجت مع الأطفال أنفخ فى الزمارة وأنا أرتدى الردنجوت وقد شمرت — جدتى — أكمامه وثنت ساقى البنطلون وأخذت انتقل الهوينا بقدمى « يلق » فى الحذاء ، وكأنى ألبس مركباً ! .

والمدهش أن الله قد أبى أن يحقق نظرية خالى فى مسألة نمو . . فقد بقيت كما ترى ، ومرت السنة تلو السنة وأنا أهرول فى البذلة والحذاء ، وأقسم ثلاثاً أننى لو عثرت اليوم على الحذاء لعامت فيه قدماى . . لقد كان خالى بعيد النظر جداً . . أبعد مما استطعت أنا الوصول إليه .

وكانت البذلة والحذاء أمراً محتملا فى العيد . . لاسيما

أن جدتهما وفرحتى بهما لم تذهب بعد ، وأن اختيالى لم يكن يتعدى الحارة وأهل الحارة . ولكن لم تكد تنتهى الأجازة وأذهب إلى المدرسة . . حتى بدأت أثير بهما ضجة بين التلاميذ .

ولم تزعجنى الضجة . . فقد كنت — من يومى — مخلوقاً مرحاً « هايهلى » ، ولم أحاول أن أجعل من طقم الردنجوت مبعثاً لخجلى أو لضيقى . . بل كنت أشترك مع التلاميذ فى نكاتهم علىّ ، أردها تارة وأحتملها تارة أخرى ، وأنا فى الحالتين ضاحك مرح .

وهكذا استطعت أن احتمل الردنجوت . . أما الحذاء فقد كان مصابى الأكبر ، وخاصة فى حصة اللغة العربية .

كان درس اللغة العربية هو الدرس الخامس . . أى بعد فسحة الغداء ، وكان مدرس اللغة العربية هو الشيخ على الابريمى . . كناية عن أنه جاف مقدد مقلحف كالبلح الابريمى ، ولم تكن العلاقة بينى وبين الشيخ على بطيبة فى يوم من الأيام . . فقد كان دائماً يتهمنى بالبلادة والغباوة والكسل ، ويقسم أنه لم ير فى حياته تلميذاً أكثر منى غباء . وكان ينصحنى دائماً بأن أقلع عن الدراسة وأبحث لى عن صنعة أتعلمها ، لأنه لا أمل لى قط فى النجاح .

ولم يكن الشيخ بمتجن علىّ فقد كنت فعلا مخلوقاً غبياً ، وخاصة فى العربية ، وما استطعت قط أن أعى شيئاً عن النحو والصرف والإعراب لسبب واحد . . هو أنى لم أستطع البقاء مستيقظاً فى حصة واحدة من حصص الشيخ على . . فقد كانت حصصه تعقب الغداء مباشرة وكان الجهد الذى أبذله فى الفسحة والشراهة التى أتناول بها الطعام . . . تجعل استيقاظى فى الحصة الخامسة أمراً مستحيلا .

وكان نومى — قبل أن ارتدى الحذاء اللعين — مسألة مضمونة مأمونة . . أما بعد ارتدائه . . فقد أضحى عملية مفضوحة مكشوفة .

كان جرس الفسحة يدق فندخل الفصول . . ويجلس كل منا فى مقعده ، وكنت أنتقى لى مقعداً خاصاً فى الحصة الخامسة . . هو آخر مقعد فى ركن الفصل ، وكنت أجلس فيه آمناً مطمئناً . . يحجبنى عن عين الشيخ على جسد التلميذ الضخم الجالس أمامى . . الذى كان يستر جسدى الضئيل تماماً .

ويبدأ الشيخ على الشرح . . بصوته الرفيع ذى النغمة الواحدة التى لاتتغير . . والتى كان لها تأثير مهدىء على أعصابى ، والتى كانت تعادل وقتذاك حفنة من الأقراص

المنوّمة ، وأحاول عبثاً أن أتتبع حديث الرجل عن البدل والحال . . ولكن لا تمر برهة حتى أكون قد سبحت مع الملائكة فى سبات عميق .

وكانت عادتى — ومازالت — عندما أنام وأناجالس أن أتخذ وضعاً مريحاً . . بوضعى ساقاً على ساق .

ولم يكن هذا بالأمر الخطير حتى رزانى الخال العزيز . . بالحذاء إياه .

لقد وضعت — كعادتى — ساقاً على ساق ، ورحت فى سباتى . . أنعم بنومة هادئة عندما سمعت فى الفصل ضجة مفاجأة تقطع صوت الشيخ على الرفيع الهادىء .

وفزع الشيخ على وصاح ثائراً :

— ما هذا ؟ .

وأجابه الفصل كله فى نفس واحد :

— حذاء عبدالعزيز عمران .

ومنذ ذلك اليوم ولم يغمض لى جفن فى درس عربى . فقد كنت لا أكاد أحس بالخول وأستسلم للنعاس واضعاً ساقاً على ساق . . حتى ينزلق الحذاء من قدمى ويهوى إلى الأرض فى ضجة كبرى ، ولم يكن الشيخ على فى حاجة بعد ذلك لأن يسأل عن سر الضجة . . بل كان يصيح حانقاً :

— أخرج بره ياواد ياعمران يابن الكلب .

ثم يهجم علىّ ويعدو ورائى وأنا ممسك بالحذاء فى يدى ، وأنطلق هارباً من الفصل ، والتلاميذ يضجون بالضحك والأستاذ يضج بالشتائم ويصيح :

— أقسم إنك لن تفلح ياغبى يا بليد . . هذا شاربى إن كنت تفلح . . سأذكرك بقولى هذا فى المستقبل . . عندما تصبح كمسارياً ، أو عربجياً . ! هذه أشكال لا تنفع فى المدارس .

* * *

ولم يكد عمران باشا ينتهى من حديثه حتى لمحت حذاءه (الباللى) الوجيه ينزلق من قدمه ويهوى إلى الأرض ، ورغم أن الضجة التى أحدثها الحذاء عندما اصطدم بالأرض كانت ضجة خافتة إلا أنها كانت كافية لإيقاظ الشيخ المغرق فى نومه فى المقعد المجاور .

لقد كف الرجل عن شخيره وفتح عينيه فى فزع . . وبحركة لاإرادية وجدته ينحنى فيتناول الحذاء ، ويسلمه إلى عمران باشا قائلا فى أدب :

— اتفضل ياسعادة الباشا .

وتناول الباشا الحذاء ، وهو يقول فى تواضع :

ـ العفو ياسيدى العفو .

وقبل أن يعود العجوز إلى سباته رأيت الباشا يقوم بواجب التعريف بيننا . فيشير بيده إلىّ ثم إلى الشيخ قائلا :

ـ الاستاذ الشيخ على الأبريمى . .

وتملكتنى دهشة شديدة . . أهذا إذاً هو الشيخ الإبريمى . مدير العربية السابق ؟

ولم يستطع الشيخ أن يغالب النعاس . . فاستغرق فى نومه ثانية وعاد الباشا يقول متمماً حديثه متجاوزاً عن علامات الدهشة التى بدت على وجهى :

ـ لقد مرّت الأيام وانتقلت من مدرسة إلى مدرسة ، والشيخ على مازال مدرساً للغة العربية ، وأصبحت مهندساً وهو ما زال مدرساً للغة العربية ، وتوظفت فى الحكومة واستقلت من الحكومة وهو ما زال مدرساً للغة العربية ، وأنشأت الشركة تلو الشركة ، وهو مازال مدرساً للغة العربية ، والتقينا ذات يوم فأقبل علىّ مرحباً مهللا مكبراً ، وصاح بى :

ـ ماشاء الله . ماشاء الله . . من يومك وانت فالح . . هكذا الهمة وهكذا الذكاء والنبوغ ، كنت أتنبأ لك بهذا

الفلاح . أتذكر يوم قلت لك أنى سأذكرك بما ستصبح عليه مستقبلا ؟ .

ـ أذكر ياشيخ على . . أذكر جيداً .

وأنبأنى أنه سيحال إلى المعاش بعد بضعة أيام بلا معاش ، بعد خدمة وزارة المعارف أربعين عاماً . . فقلت له :

ـ ربنا تاب عليك من التدريس ياشيخ على ! . . تحب أشوف لك وظيفة فى الشركة ؟ .

ـ ياريت . . !

وهكذا ختم الشيخ على الابريمى مطافه المدرسى . . بوظيفة فى شركة الدوبارة .

وصمت الباشا برهة . . فسألته :

ـ وماذا يعمل الشيخ فى الشركة ؟ .

ـ لاشىء ، وماذا يستطيع أن يفعل أكثر مما رأيت ؟ يسهيني ويرفع الحذاء الساقط . . ! رحم الله العلم والتدريس فى أرض الكنانة !

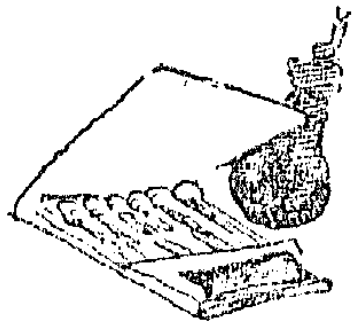

وسحبت يدي من يدها وأحطتها بذراعي فأمالت رأسها على كتفي ، ومددت شفتي فحوت شفتيها . وقبلتها في لهفة وشوق ، وحمدت الوسواس الخناس الذي يوسوس في صدور الناس .

الوسواس الخناس ..

كنا أربعة أو خمسة من الصحاب التفقنا حول مائدة في منتدى وأخذنا نقطع الوقت بالحديث والسمر .

وما أذكر أن الصحبة اجتمعت إلا كانت الأنصاف الحلوة مدار الحديث وموضع السمر . . وعند ما أقول الأنصاف الحلوة أعنى بالطبع الأنصاف الحلوة بكافة أنواعها بما فيها الأنصاف الحلوة الشرعية . . والأنصاف الحلوة غير الشرعية .. والأنصاف الحلوة الطائرة العابرة الفاتنة الفاتكة .

أما الأنصاف الحلوة الشرعية — أعنى الزوجات إذ كنا كلنا أزواج — فقد كانت فى نظرنا حلوة باعتبار ما كان وما كنا نذكرها فى أحاديثنا بغير المرارة والشكوى والهجاء والتشنيع .

أما الأنصاف الحلوة . . غير الشرعية ، فقد كانت فى أحاديثنا ذكريات حلوة غابرة ومغامرات نتبادل سردها على سبيل السمر والتسلية واستعادة أيام الصبا وعهود الشقاوة والتحرر والانطلاق .

أما الأنصاف الطائرة العابرة فما كنا نملك إزاءها إلا الحملقة والحسرة .

وبدأ أحدنا الحديث برواية النكتة التالية من باب التشنيع على الأنصاف الحلوة — التى كانت حلوة — قال لا فض فوه :

— جلس رجلان متزوجان على أحد الشواطىء يرقبان الغاديات الرائحات ، وكلما مر بهما وجه جميل أو جسد مشوق لفت أحدهما نظر الآخر بغمزة أو بزغدة سائلا إياه : « شايف دى ؟ » فينظر صاحبنا ولا يجيب بغير بصقة اشمئزاز . . واستمر الحال هكذا . . أحدهما يغمز ملفتاً متسائلا ، والثانى يجيب باصقاً مشمئزاً ، حتى ضاق به صاحبه ذرعاً فسأله فى غيظ : « كل دول مش عاجبينك ؟ » فأجابه الآخر فى دهش : « مين قال لك مش عاجبنى ! » فعاد يسأله متعجباً : « أمال بتف ليه ؟ » فأجابه ببساطة : « بتف على اللى فى البيت ! » .

ولم يضحك أحدنا على النكتة فقد كانت قديمة ، ولم يكن هناك منا إلا من سمعها أو فعلها ! .

وأخذنا بعد ذلك فى الحديث عن الأنصاف غير الشرعية وهو أحب الحديث إلى أنفسنا وجعلنا نتبادل قص المغامرات والنوادر . . وبين آونة وأخرى يطبق علينا الصمت فجأة . . وتتحرك أعيننا فى اتجاه واحد وبزاوية

نظرة واحدة مملقين فى نصف حاو عابر . . حملقة من لم ير نصفاً حاواً من قبل . . مشيعينه باللهفة منذ ظهوره حتى اختفائه .

وأفرغ كل منا بعض ما فى جوفه من نوادر الصبا . . إلا واحداً كان أكثرنا تؤدة وأقلنا حديثاً . . فقد أخلد إلى الصمت والاستماع حتى استحثه بعضنا بقوله ناهراً :

— توفيق . . قل شيئاً ، وكفّ عن هذا الصمت الثقيل . لا بد أن تكون لك بعض المغامرات .

ولم يجب توفيق ، وعدنا نشجعه بقولنا :

— قل ولا تخف . . لن نبلغ زوجتك شيئاً . . أليس لك مغامرات ؟ .

وأجاب أحدنا بالنيابة عنه :

— لا بد أن له مغامرات كثيرة .

وضحك صاحبنا توفيق ، وأجاب بعد طول صمت :

— مغامرة واحدة . . والله العظيم .

وصحنا كلنا فى نفس واحد :

— قصها علينا . . لن نتركك حتى نستمع إليها ! .

وأطرق توفيق برأسه برهة يستعيد القصة إلى ذهنه ويلم

أطرافها من أنحاء الماضى . . ثم ضحك ضحكتين قصيرتين ، وأخذ يقص مغامرته قائلا :

☆ ☆ ☆

بدأنا المغامرة منذ خمسة عشر عاماً وأنا مازلت حديث عهد بالتخرج من المدرسة وبالتوظف . . حديث عهـــد بالاستقلال الذاتى ، وبالاثنى عشر جنيها أتناولها فى أول كل شهر وأشعر أنها ملـكا خاصاً لى . . وأنى حر التصرف فيها أصرفها كما أشاء . . وأبددها حيثما أشاء ! .

ومع ذلك فلم أكن أبددها ولا أصرفها . . بل كنت أقتصد جزءاً كبيراً .. لأنى كنت أعيش فى ذلك الوقت مع والدتى . . ولم يكن هناك أوجه للصرف . . لا سيما وأنا كما تعلمون مخلوق طيب هادىء لم أستطع بعد — رغم توظفى — أن أتحرر من الإحساس بأنى مازلت تلميذاً . . وأن أوسع نطاق نزهتى وفرفشتى . . فـكان أقصى ما أفعله من « برم » هو أن أذهب إلى السينما « ماتينيه » وأتناول ٢ سندويتش من الأمريكين وقطعتى جاتوه من تسيباس ، وأجول جولة فى شارع فؤاد وعماد الدين متطلعاً إلى الغاديات الرائحات أو المتسكعات على الفترينات ، ثم أعود إلى البيت حامداً شاكراً فلا تدق العاشرة حتى أكون راقداً فى الفراش .

كان ذلك أقصى برنامج الشبرقة والبرم والتهيص والفرفشة سينما وسندويتش وجاتوه وتطلع إلى النساء والفترينات . . حتى بدأت المغامرة الأولى .. وراء إحدى الفترينات .

كانت الفترينة المقدسة . . فترينة الهوى والذكريات . . هى فترينة ريفولى الكائنة على ناصية شارع عماد الدين وشارع عدلى .

والفترينة فى حد ذاتها عامرة حافلة . . ملفتة مغرية . . وهى تقع فى معبر هام لايكاد يمر يوم دون أن أعبره رائحاً أو غادياً . . متمهلا أمام الفترينة مستعرضاً محتوياتها ونظارها متطلعاً إلى مافى داخلها وخارجها ممتعاً الطرف بما فيها وما حولها .

وزاد تمهلى يوماً بعد يوم ، وأضحى مرورى بالفترينة ووقفتى أمامها واجباً مقدساً لابد من تأديته . وأخذ البصر يتجاوز ما فى الفترينة إلى ما وراءها . . وينفذ من الزجاج متخللا المعروضات عابراً الظهر الزجاجى مستقراً على وجه معين يتخذ مكانه فى أحد أقسام المحل .

وكان وجهاً حلواً صغيراً دقيقاً متسع العينين .. لذت لى مشاهدته كل يوم . . حتى أصبحت عادة ملحة عندى ، وبدأت أضع زيارته من وراء الفترينة على رأس برنامج

الفرفشة والبرم وأضيف إلى السينما والساندويتش والجاتوه والتسكع ، وقفة بفترينة ريفولى لمدة ربع ساعة قابلة للزيادة إلى نصف ساعة .

ومضت بضعة أشهر ، ومغامرتى لا تتجاوز التطلع من وراء الفترينة . . حتى وسوس لى الوسواس الخناس الذى يوسوس فى صدور الناس . . بأن أتجرأ قليلا وأقدم على عمل إيجابى وأقنعنى بأن دخلة فى المحل ووقفة أمام الساحرة ومحاولة الشراء ستنيلنى الأرب وتبلغنى المنى دون أن يكون فى عملى خروج على مألوف أو لفت لنظر .

واقتنعت بسهولة بكلام الوسواس الخناس ، ودخلت المحل . . واتجهت رأساً إلى بغيتى دون أن يكون لدىّ أى فكرة عما أنوى شراءه .

ووقفت أمامها وجهاً لوجه . . أو بتعبير أدق عيناً لوجه . . فما كان بى وقتذاك سوى عينين تحملقان فى وجهها الحلو .. ومضت برهة وأنا أفحصها وهى ترتب بعض البضائع فى منضدة زجاجية أمامها .

وأتمت عملها ثم رفعت إلىّ بصرها متسائلة :

ـ أفندم ؟ .

وهنا فقط تذكرت أنه يجب ألا أكتفى بالحملقة فيها بل

أشترى شيئاً ، أو على الأقل أحاول الشراء .

وبنظرة سريعة عرفت نوع بضائعها وكانت تتولى قسم أدوات الزينة للسيدات من مانيكير وعطور وبودرة ومقصات أظافر وكريم للوجه . . الخ .

وأخذت أفحص ما عندها محاولا أن أجد شيئاً يصلح للشراء . . أعنى ما يمكن شراؤه دون أن يذهب ثمنه سدى .

ولم يكن لديها بالطبع شيء يصلح لى . . فبدأت أبحث عن شيء يصلح لوالدتى قائلا فى نفسى إنى لم أهدها شيئاً منذ أن تخرجت ، وأخذت أفحص الأصناف المعروضة ببصر حائر وذهن قلق مضطرب لإحساسى أنى واقع فى هذه اللحظة تحت بصرها . . وأنها ولا شك آخذة فى فحصى ولو على سبيل التسلية .

وفجأة تذكرت أن والدتى كانت قد طلبت منى ربع أقة « حنه بغدادى » من الحناوى بالغورية . . وقلت لنفسى إنه لو كان لدى الفاتنة هذا النوع من الحنة فإن المسألة تكون صفقة رائعة وتوفيقاً من عند الله ، وأكون بذلك قد أرضيت نفسى ووالدتى وخرجت من هذا الحرج الذى أنا فيه قائلا .

— عندك حنه بغدادى ؟ .

ولم تستطع الآنسة أن تمنع الابتسامة التى افتر عنها ثغرها

وهزّت رأسها وقالت فى لهجة فيها زجر خفيف :

— لا يا فندم . . ألا تريد شيئاً غير الحنه البغدادى ؟

وأصابنى الارتباك من هذا الزجر الذى كشفت به أمرى وقلت مدافعاً :

— أريد أى شىء . . أهديه لمخلوق عزيز .

وتأملت المنضدة برهة . . ثم أخرجت لى علبة فى حجم الكف وفتحتها قائلة :

— هذه علبة لطيفة . . بها طقم كامل للزينة . . هذه زجاجة الريمل ، وهذه زجاجة المانيكير ، وهذه بودريير لطيفة جداً لم يعد عندنا سواها . . أنصحك بأخذها .

وكانت لهجتها فى الحديث حلوة كوجهها ، والكلام يقطر من شفتيها كما يقطر عسل النحل ! .

إنها تنصحنى بأن آخذ العلبة . . ولم أكُ أقوى على رد النصيحة ، ولو كنت ملاقياً فيها حتفى . . ولا كنت بمستطيع رفض العلبة ولو كان بها بدل الريمل والمانيكير سم زعاف !

وأخذت العلبة ودفعت فيها كل مافى جيبى فلم يبق معى غير أجر الترام . . وعدت إلى البيت قريراً هانئاً كأنى قد فتحت عكا ، أو كأنى « جبت الديب من ديله » ! .

ولا أظن هنالك ضرورة لوصف وقع الهدية على والدتى

وثورتها علىّ ، واتهامها إياى بالخبل وإصرارها على إرجاعها ، وانتهى الأمر بها إلى بيعها إلى إحدى القريبات بنصف الثمن .

وبدأت بعد ذلك سلسلة من الغزوات الشرائية الغزلية لمحل ريشولى . . ولكنها غزوات خسائرها خفيفة محتملة . . فيوماً أبتاع بنسات للشعر . . ويوماً آخر أبتاع ملتاطاً للحواجب . . وهكذا ظللت « أمزمز » على بضائع الحسناء وأخرج منها بما خف حمله وخف ثمنه ! .

ومع ذلك فقد ثقل الأمر على جيبى ، وتكدست لدىّ كمية من أدوات السيدات أستطيع أن « أسرح » بها فى عربات الترام ، وكان لابد لى من أن أضع للأمر نهاية ، لاسيما وأن مرور الأيام وكثرة الغزوات والأحاديث العابرة والنظرات الطيارى زادتنى شغفاً وولعاً .

وعاد الوسواس الخناس مرة أخرى يوسوس فى نفسى ويأمرنى بأن أتخذ خطوة أشد جرأة وأكثر جسارة وأقنعنى بأن انتظارها على باب المحل حتى خروجها ثم تتبعها ومعرفة بيتها سيكون خطوة موفقة ومرحلة حاسمة فى مغامرتى .

وفعلتها . . ووقفت أنتظر حتى أغلق المتجر أبوابه . . وخرجت البائعة الساحرة . . وسرت أتبعهـــا فى حذر عن بعد . . حتى انتهى بى المطاف بعد طول سير

وركوب أتوبيس إلى باب بيتها بالسكاكينى ، ودخلت هى ، وعدت بلا . . حتى خفى حنين .

وهكذا بدأ التطور الثانى لبرنامج فرفشتى ، فزاد على السينما والساندويتش والجاتوه والتسكع ، انتظار على باب محل ريفولى وتوصيل الحسناء فى أتوبيس نمرة ١٠ حتى بيتها فى السكاكينى .

واستمررت أوصلها كل ليلة دون أن تبدو منها بادرة تشعرنى أنها تعرفنى أو تحس بى ، بل كانت تتجاهلنى تجاهلا تاماً ، لا غضب ولا ضحك ولا نفور ولا انبساط !

وسنحت الفرصة الرائعة ذات يوم .. الفرصة التى تلمع فجأة . . ثم تختفى ، فإن اقتنصها الإنسان ذاق سعادة العمر ، وإن تركها تفلت ذهب عمره سدى .

رأيتها ذات يوم ، وكان يوم أحد واقفة أمام شباك تذاكر سينما متروبول ، توشك أن تبتاع تذكرة .

ولم يكن الوسواس الخناس — بلا جدال — هو الذى وسوس هذه المرة فى صدرى . . لأنى اندفعت قبل أن أعطيه فرصة الوسوسة لأتخذ مكانى وراءها مباشرة أمام شباك التذاكر ، ولأطل برأسى فأعرف مكانها ثم أطلب من البائعة إعطائى التذكرة المجاورة لها .

وهكذا اقتنصت فرصة العمر بلا أدنى تفكير ، ولو كنت قد فكرت لترددت وأحجمت ، ولضاعت الفرصة . . فأنتم تعرفون أى إنسان خجول أنا .

وجلست بجوارها كتفاً فى كتف وذراعاً لصق ذراع ، وأنا أكاد أسمع حفيف أنفاسها ، ويكاد قلبى يقفز — من فرط الخفقان — من أضلعى .

وأطفئت الأنوار ، ولم أحاول بالطبع أن أنظر إلى الشاشة أو أفكر فى الفيلم ، فقد كان كل تفكيرى مركزاً فى كيف أبدأها الحديث .

وهدانى الخناس إلى أن أمس ذراعها بذراعى وأتحسس يدها بيدى .

وأطعته وفعلت .

وكان نصيبى زغداً من مرفقها فى جانبى .

وبلعتها ، وكتمت الزغد فى جنبى !

وعاد الوسواس الخناس يلح فى وسوسته ويقول :

— أقدم . . أقدم !

واستمر الوسواس يوسوس وأنا أطيع ، ويغرى وأنا ألبى ، حتى انتهى الأمر بى إلى زغد آخر ، لا منها ، ولا فى جانبى ، بل من الجالس ورائى ، وفى ظهرى ، وهو يهمس

بى زاجراً وهو فى حالة غضب شديد :

ـــ كفايه بوس بقى يا سيدنا ! إحنا حانتفرج على السينما والا عليك !

وكان الرجل محقاً . فلقد كنت لا مراء وقتذاك أستحق المشاهدة .

أى والله . لقد انتهى بى الأمر بعد طول وسوسة من الوسواس وتلبية منى إلى أن أصبحت شفتا الحسناء فى فمى وجسدها بين ذراعى !

كيف ؟ !

لقد لمست يدها أول مرة فزغدتنى فى جانبى ، وثانى مرة سحبت يدها . وثالث مرة استسلمت واتكأت علىّ بكتفها .

وسحبت يدى من يدها وأحطتها بذراعى فأمالت رأسها على كتفى ، ومددت شفتى فمدت شفتيها .

وقبلتها فى لهفة ونشوة ، وحمدت الوسواس الخناس الذى يوسوس فى صدور الناس .

وفى اليوم التالى ذهبت إليها فى المحل ورجوتها أن تنتقل إلى قسم آخر رجالى ، حتى توفر لى هذه النقود التى تذهب سدى .

وضحكت وأنبأتنى أنه لاداعى لأن آتى لها فى المحل . .
واتفقنا على موعد للقاء .

وهكذا بدأنا نلتقى ، وأنا إنسان قليل الحيلة . . عديم التجربة ، ليست لدىّ أقل فكرة عن أين يذهب العشاق أمثالى بعشيقاتهم من مثيلاتها .

ولم يكن أمامى غير السينما أصطحبها إليها اللقاء بعداللقاء حتى بدأت أضيق بالسينما وأهفو إلى مكان هادىء يوفر لى خلوة نكون فيها أكثر تحرراً واطمئناناً .

وعاد الوسواس يلح ويطلب منى أن أنقب وأبحث ، حتى هبط على صديق من السماء كان أشبه بالمعجزة .

كان الصديق صاحب عربة . وقد قصدته لأقترض منه عربته وقلت له صراحة ، إنى أريد عربته ، لأتنزه بها أنا وصاحبة لى .

وقال الصديق ببساطة :

ــ العربة تحت أمرك ، ولكن لم تتعب نفسك فى العربة إن لدىّ شقة لطيفة خاصة ، تستطيع أن تأخذ مفتاحها فى أى وقت !

وبهت ، فقد كان هذا أكثر مما أتوقع .

شقة مرة واحدة !

ولم أتردد لحظة ، وقلت له :

— هات المفتاح .

وأخذ يصف لى الشقة معدداً محاسنها ، فأنبأنى أنها واقعة ببيت من بيوت الشركة فى نهاية مصر الجديدة من ناحية السباق وأنها شقة بباب منعزل على الشارع يستطيع الإنسان أن يدخل إليها ويخرج منها دون أن يشعر به أحد .

وأنبأنى أنها مزودة بكل وسائل الراحة وبها حجرة نوم نظيفة ومطبخ به بعض المأكولات الخفيفة وراديو . . الخ .

وأنبأنى كذلك أن الكهرباء فيها بعداد من النوع الذى يشتغل بالنقود . . أى إننا لانحصل على كهرباء إلا بقدر النقود التى نضعها فى العداد .

وكانت المرة الأولى التى أسمع فيها عن هذا العداد . . وأخذ صاحبى يصف لى موضعه وكيفية وضع النقود فيه . وشعرت بارتباك وقلق خشية أن يسبب العداد مشكلة . . ولكن صاحبى طمأننى بأن به من النقود قدراً كافياً ، وأنه يزودنى بالمعلومات من باب الاحتياط !

ووصف لى البيت جيداً ، وأعطانى نمرة الشارع ونمرة البيت ، وتواعدنا على اللقاء فى الساعة السادسة مساء ، حتى يعطينى العربة والمفتاح .

وتركت صاحبي وأنا أحس بفرحة ممزوجة بالكثير من الخشية والوجل . . فقد كانت المرة الأولى التى أوشك أن أنغمس فى مغامرة كهذه .

ومن باب الحذر ذهبت فى التو لأستكشف البيت بالنهار حتى يسهل علىّ الذهاب إليه ليلا .

ووصلت إلى هناك وعرفت البيت بسهولة ، ووجدت مكانه نموذجياً ، فقد كان — كما قال صاحبي — دور سفلى فى أحد بيوت الشركة المتجاورة المتشابهة وكان له باب منعزل يفضى إلى حديقة صغيرة تطل على شارع صامت ساكن ، لا يكاد يمر به أحد ، وهكذا عدت مطمئناً وأنا أمنى النفس بمغامرة مقبلة ممتعة .

ومرّ كل شىء على خير ما أشتهى ، فقد التقيت فى الساعة السادسة بصاحبي وسلمنى المفتاح والعربة ، وفى الساعة السابعة والنصف كانت الحسناء تجلس بجوارى وكانت العربة تنهب الأرض فى طريقها إلى مصر الجديدة .

ومر كل شىء على مايرام فيما عدا بعض « عصلجة » من المفتاح سرعان ما تغلبت عليها ، ودخلنا الشقة فإذا بها رائعة حقاً وجميلة .

وعلمت أن صاحبي أفرط فى التواضع ، فقد وجدت

الشقة مؤثثة برياش فاخر ، (وأنها قد صممت لتكون وكر غرام) .

لا أطيل عليكم التفصيل والوصف . لقد أخذت أجول وصاحبتى فى الشقة ، وجلسنا نستمع برهة إلى الراديو ، وتناولنا بعض الفاكهة التى وجدناها فى المطبخ ، ثم ذهبنا إلى غرفة النوم .

والواقع أنى كنت غير مصدق ما أنا فيه ، فقد كان شيئاً لا يصدق أن أجد الساحرة الرائعة التى كنت لا أتمنى أكثر من النظر إليها ، قد أضحت بين يدى فى هذه الحجرة الفخمة ذات النور الأحمر . . الذى يبعث فى الجسد حرارة ، وفى النفس نشوة .

وخلعت الجاكتة والقميص ، وجلست وإياها على حافة الفراش ، وبدأت أتحسسها بتمهل وبطء وتمعن ، تماماً كما يتحسس محروم أحد ثمار المانجو ويشمها قبل أن يأكلها . . وأخذت أتحسس وجهها وعنقها بشفتى ، ورأيتها تسبل عينيها فى نصف إغماضة ، وتراخت أعضاؤها فى استسلام كلى !

وفجأة انطفأ النور .

ووجدتها تفيق من نشوتها ، وتجلس خائفة فزعة .

ولم يكن انطفاء النور فى ذاته بالشىء المفزع . . ولكن

المفاجأة التى حدث بها هى التى كانت مفزعة .

وسمعتها تصيح : « افتح النور » .

وحاولت أن أطمئنها ولكنها عادت تصيح مصرة : « افتح النور قلت لك » .

وقمت أتلمس طريق فى الظلمة متذكراً كل ما قاله صديق عن النور وعن العداد الذى ينطفىء إن لم تضع فيه نقوداً ، وأدركت أن الصديق قد خدعنى ، وأنه لابد من وضع نقود فى العداد حتى يعود النور .

ولكن أين العداد ؟

وبدأت أستعيد لنفسى موضعه وكيف وصفه صاحبى .

فى الطرقة ، على اليمين بجوار باب المطبخ . . هذه هى الطرقة ، وهذا هو باب المطبخ . . ولكن لايوجد أى أثر للعداد !

وأخذت أتحسس الجدران قطعة قطعة ، حتى مست يدى صندوقاً من الصفيح معلقاً على الحائط به ثقب أشبه بثقب الحصالة ، ومددت يدى فى جيبى ، وأخرجت قطعة من فئة الخمسة قروش ووضعتها فى الفتحة . . ولكن النور لم يضىء ، وأمسكت بالصندوق وجذبته فإذا به شىء منفصل ليس له أية صلة بالكهرباء !

وكان لا بد من العثور على ثقاب حتى أشعل به شيئاً ولو قطعة من الورق تعطيني ضوءاً ، ولم أجد بداً من الخروج إلى الشارع لكي أقترض من أحد المارة عود ثقاب .

ووقفت بباب البيت أنتظر عابر سبيل ، وكان أول من مرّ بائع لبن زبادى أخبرنى أنه لا يحمل ثقاباً ، وكان الثانى رجلا أنيقاً وسيما نظر إلىّ نظرة تعجب وأنا أقف بالفانلة والبنطلون وسألنى لم أريد الثقاب ؟

وأنبأته بأن النور انطفأ ، وأنى أريد أن أبحث عن موضع العداد . ونظر إلى الرجل نظرة شك وسألنى عمن أكون ؟ فقلت له . فعاد يسألنى عما إذا كنت صاحب الشقة أم ضيفاً ؟

وضايقتنى أسئلته ، وقلت فى ملل وضيق وخشية :

ـــ إذا كان معك ثقاب فأرجوك أن تعطينى إياه .

ـــ الثقاب معى ، ولكنى واثق أنك لن تجد العداد ، ولن تستطيع تشغيله ، أتسمح لى بأن أدخل لتشغيله وأوفر عليك الجهد .

وأخذت أدبر الفكرة فى رأسى ، وكنت فى حالة من الضيق والخوف تجعلنى متلهفاً على تشغيل العداد بأية وسيلة ، فلم أجد بداً من قبول اقتراحه ، لاسيما وأن مظهر الرجل كان يبعث على الارتياح .

ودخلت ودخل الرجل ورائى ووجدته يعرف الطريق أسرع منى ، ولم تمض لحظة قصيرة حتى كان النور قد أضىء .

وكنت فى هذه اللحظة قد أغلقت باب غرفة النوم . . وطلبت من الحسناء الغضبى أن تنتظر حتى أعود إليها .

ووجدت الرجل قد جلس فى الصالة ، فى حالة من الاطمئنان ، وأخذ يقضم إحدى التفاحات الموجودة فى الطبق كأنه يجلس فى عقر داره .

وكنت أتوق إلى خروجه والتخلص منه . ولكنى لم أكن أريد أن أغضبه أو أبعث الشك فى نفسه ، فتظاهرت بالصبر وبأن وجوده لا يزعجنى كثيراً .

ووجدته يعود إلى أسئلته الحرجة البائخة التى بدأها من قبل فقال لى :

— أظن حضرتك ضيفاً ؟

— أجل !

— لأول مرة تحضر إلى هنا ؟

— أجل !

— هل تعرف صاحب البيت ؟

— أجل ، إنه قريبى .

— من هو ؟

ووجدته قد تمادى فى أسئلته ، ولكنى لم أجد بداً من إجابته حتى أتخلص منه .

— إنه على بك فوزى .

وضحك الرجل وأمعن فى الضحك .

وعجبت لضحكه ، وخيل إلى أنه مخبول ، وندمت على إدخاله وقلت لنفسى إن الظلمة خير منه كثيراً وأهون شراً .

ولم أجد طريقة لإخراجه خيراً من أن أزعم أنى أريد مغادرة الدار فيضطر للخروج معى ثم أعود وحدى ثانية .

ونهضت متجهاً إلى حجرة النوم لأرتدى القميص والجاكتة كى أوهمه أنى خارج .

وفتحت باب الغرفة وأغلقته بسرعة . وكانت صاحبتنا قد جلست على حافة الفراش وهى فى قلق رغم إضاءة النور ، ولم تكد ترانى حتى هبت واقفة وهمت بالصياح ساخطة محاولة أن تطلب منى الخروج .

ولكنى أسرعت بوضع يدى على فاها كى أمنعها من الحديث خشية أن يسمع الرجل صوتها وهمست فى أذنها :

— لا تتحدثى . . إن فى الصالة رجلا غريباً . وهو الذى ساعدنى على إضاءة النور . ويبدو أنه من نوع ثقيل . .

أو لعله سكران ، فهو لا يريد الإنصراف ، وسأفهمه أنى خارج حتى يخرج هو الآخر ثم أعود إليك حالا .

وبدت الدهشة عليها ، ونظرت إلىّ نظرتها إلى مجنون ولكنى خطفت القميص والجاكتة وأغلقت الباب قبل أن أعطيها فرصة الرد .

ووقفت أمام الرجل بعد أن وضعت الجاكتة على كتفى وقلت له : هيا بنا .

ـــ إلى أين ؟

ـــ إنى أنوى الخروج .

ـــ ولكنى لا أريد الخروج . يمكنك أن تخرج وحدك .

وهنا أحسست أن الموقف يحتاج إلى حزم وأن الرجل يريد أن يستغل موقفه ، فقلت له فى لهجة حازمة عنيفة :

ـــ أرجوك ، ليس لدى وقت للمزاح .

ـــ أنا لا أمزح ، أؤكد لك أنى أود البقاء لأنى متعب .

ـــ تستطيع أن تستريح فى بيتك .

ـــ وهذا بالضبط ما أفعله الآن .

ـــ ماذا تقصد ؟

ـــ أقصد أنى أستريح فى بيتى .

— هذا بيتك ؟

— أجل ! هذا بيتى ، أما البيت الذى كان مفروضاً أن تكون فيه فهو البيت المجاور . لا تدهش فالبيتان متشابهان ، وأنا نفسى أقع أحياناً فى هذا الخطأ . . والآن تستطيع أن تنتقل وحدك ، وإنى مسامحك فيما أكلت من تفاح .

وضحك الرجل .. ولكنى لم أضحك ، لقد كانت المشكلة عويصة ، كيف أخرج وأترك الحسناء ؟ وكيف أخرجها أمامه وأنا قد زعمت له أنى وحدى .

ولاحظ الرجل ترددى . . ولاحظ نظرتى إلى باب حجرة النوم فأدرك ما وراءه .

وكان الرجل حكيما لطيفاً فنهض معتذراً وقال :

— إنى جد آسف .. تستطيع أن تقضى سهرتك ، وبلغ سلامى إلى فوزى بك .

وخرج الرجل بعد أن نشف دمى .

ولم أتم السهرة بالطبع ، فقد كانت الحسناء فى حال من الخوف والضيق والغضب ، ولم أكن أقل منها خوفاً ، ولا ضيقاً ، وخرجنا نحن الإثنان قانعين من الغنيمة بالإياب !

هذا هو الابن النقي التقى ، الطاهر الذيل ، المفمض العينين . . الذى يخشى أبوه أن تتفتح عيناه على مفاسد القاهرة .. هذا هو الوديعة التى تسلمها المبقريات تربيتها والسهر عليها .

امام الفقك

القصة ذات أربعة أبطال ، وأغلب الظن أنه لم يبق من أبطالهـــا على قيد الحياة سوى واحد . أما الثلاثة ، فإثنان منهم أستطيع أن أجزم برحيلهم إلى الدار الباقية ، والثالث علمه عند ربي .

ولست أدرى أى دافع خبيث يلح علىّ فى ألا أغير أسماء الأبطال ولا أكلف نفسى مشقة انتقاء أسماء مستعارة ، أستر خلفها حقيقة شخصياتهم ، قد يكون الكسل ، وقد يكون الاستهتار . . أو قد يكون اليقين بأن أحداً منهم لن يغضبه نشر القصة ، ولن يبادر إلى تكذيبي والتشنيع علىّ .

أو قد يكون أكثر من هذا كله ، وهو الاطمئنان إلى الأبطال الأربعة . . لأن أحدهم هو أبي بالذات : المرحوم محمد السباعى ، وأنا واثق أنه لو مد الله فى عمره لسبقنى إلى نشرها . . كما سبق أن نشر معظم حوادثه مع المرحوم الشيخ عبدالرحمن البرقوقى فى قصة الدروس القاسية فى البلاغ الأسبوعى فى سنة ١٩٢٨ .

أما والله لم يهبه الفرصة لكتابتها . . فلأكتبها أنا عنه ، ولو صدق مايقال عن الأرواح من أنها ترانا وتحس بنا وتشعر بما نفعل ، فأغلب ظنى أنه قارئها ، وأن قهقهته العالية

سترن فى السماء كما سبق أن رنت فى الأرض .

تبدأ القصة منذ زمن بعيد ، أستطيع أن أجزم أنه قبل سنة ١٩١٧ . . أى قبل أن أولد أنا .. فى إحدى المكتبات (أعنى بداية القصة وليس مولدى بالطبع) فى شارع غيط العدة الموصل بين باب الخلق وعابدين .

ويجلس فى المكتبة رجلان : صاحبها ، وصاحب صاحبها ، ثانيهما أفندى ، وأولهما شيخ معمم . . أما الأفندى فهو أبى : محمد السباعى ، الذى قال عنه العقاد فى تقديمه لأحد كتبه « إنه كان طليعة المدرسة الأدبية الحديثة فى نهضة الأدب المصرى » .

وأما الشيخ فهو عبد الرحمن البرقوقى ، الذى قال عنه المازنى : « إنه كان فى زمانه من أعيان البيان وأقطابه وأعلامه بل كان يمثل عهداً من عهود الأدب » .

والإثنان . . كما هو واضح ، لمن لايعرفهم من أبناء الجيل الجديد ، من أئمة الأدب العربى وأعلامه .

وإنى أستطيع أن أتصور أبى بجسده الضخم ، وكتفيه العريضتين ، ووجهه الأحمر الممتلىء ، وقد جلس على كرسى من الخوص ، ووضع ساقاً على ساق فى نفخة وعظمة كأنه يجلس فى سُبرد ، وبجواره الشيخ عبد الرحمن يجلس على

كرسى آخر بجبته المهفهفة وقفطانه الأنيق ، وجسده الفارع ووجهه الذى لايقل بياضاً ولا احمراراً عن وجه أبى . . . وقد وضع هو الآخر ساقاً على ساق وأخذ يتسلى بشد أنفاس من مبسم شيشة تكركع بجواره .

ولكى أعطى للقارىء فكرة عابرة عن الصديقين الحميمين أبدأ بشرح شخصية أبى وذكر بعض أحواله وقتذاك .

كان أبى يعمل بالأدب والتدريس ، وكان ككل فنان عبقرى بوهيمى ، لايقيم وزناً لأوضاع الحياة . . يفعل ما يرضى نفسه الفنانة بصرف النظر عن النتائج . . قال لى عمى وهو أخوه الأصغر (طه السباعى باشا) أنه حدث ذات مرة وهما العائلان الوحيدان للعائلة ، انه استقال من عمله ، وأوصى إليه بالاستقالة ، وقبعا فى الدار وأغلقا عليهما إحدى الحجرات ، والعائلة تكاد تجن ، وأبوهما يضرب كفاً بكف متسائلا فى دهش عما أصاب ولديه . . ثم اتضح أخيراً أنهما يحفظان « ديوان ابن الرومى »

وسمعت من جدى أن أبى عندما كان مدرساً فى مدرسة رأس التين بالاسكندرية كان يكره الذهاب إلى الاسكندرية ويفضل البقاء فى القاهرة ، وفى سبيل ذلك كان يجمع كل حصصه فى يوم واحد ، ويقضى بقية الأسبوع فى القاهرة .

فإذا ما جاء ذلك اليوم . . رفض السفر . . ويظل جدى يتوسل إليه ويدعو الله أن يهديه حتى يرضى أخيراً ، ولكى يطمئن جدى على سفره ، يأخذه من يده ويذهب به إلى المحطة ويركبه القطار ، ويتحرك القطار . . فيهدأ بال جدى ، ويحمد الله الذى هداه ، ثم يعود إلى الدار مطمئناً .

ويصل القطار إلى أول محطاته فى بنها ، فيشاور أبى عقله ويغادر القطار . . ثم يأخذ القطار العائد إلى القاهرة لاعناً الاسكندرية ومهنة التدريس .

ذلك هو أبى . . أما الشيخ البرقوقى . . فلا أظنه كان يقل عنه عبقرية . . وكان شديد الإعجاب به . . يتوق لأن ينهل بواسطته من منهل الأدب الغربى وأعلامه وعباقرته .

كان الإثنان يجلسان وقتذاك فى مكتبة الشيخ البرقوقى عندما هلّ عليهما الشيخ الفلك وقد سحب فى يده ولده إمام .

ولست أعلم كثيراً عن الشيخ الفلك ، ولكنى أعرف أنه رجل تقى طيب . . نقى السريرة شديد الورع . . قضى حياته فى الريف ، وقد أنهى ابنه دراسته الابتدائية فأحضره إلى القاهرة ليدرس فى المدارس الثانوية .

وإلى من يلجأ الشيخ الفلك غير الأستاذين الكبيرين والمربيين الفاضلين الأستاذ السباعى والشيخ البرقوقى ،

وهو الذى تربطه بهما أوثق الصلات وأمتن الروابط ؟

وهكذا حضر الرجل الطيب بابنه إلى القاهرة ، وأخذ يسأل عن البرقوقى والسباعى حتى اهتدى إليهما أخيراً .

وبعد التحيات والسلامات بدأ الرجل يشرح مقصده ويعرض مطلبه قائلا :

ـ بجى مايخفاش عليك ياسيد سباعى أنّى أنا خايف على الولد من مصر . . أنا باسمع أن كلها مفاسد وبلاوى ، وأنا خايف على الولد لعنيه تتفتح ويخسر . . جلت فى نفسى مافيش غيركم يجدر ياخد باله من الولد ، وأنا حاسيبه لكم وعارف إننى سايبه فى بيته . . مش كده والا إيه ؟

ويجيب الاثنان فى نفس واحد :

ـ أمال . . دا فى عنينا ياعم الشيخ . . دا ابننا . . ريح بالك وطمن نفسك . . ما تحملش همه أبداً .

ـ أنا برضه جلت كده . . هو احنا لنا حد غيركم .

ـ دا انت الخير والبركة .

ـ الله يبارك لنا فيكم .

وهكذا ينصرف الشيخ الفك تاركاً ولده فى كنف صاحبينا ، وقد اطمأنت نفسه وهدأ قلبه .

بقى أمامنا البطل الرابع ، لم نقدمه بعد . وهو إمام الفك .

قد يتصور القارىء عندما يعرف إن صاحبنا إمام ابن الشيخ الفك قد انتهى من الدراسة الابتدائية وأن أباه يخشى أن تتفتح عيناه على مفاسد القاهرة ، أنه لايعدو أن يكون طفلا غريراً .

قد يتصور كل إنسان هذا ولاسيما عندما ينظر إلى جيل أصحاب الابتدائية الحالى . . جيل أطفال لايزيد عن الحادية عشرة . . .

ولكن « إمام » لم يكن شيئاً من هذا .. أن جيل أصحاب الابتدائية وقتذاك كانوا فى سن آباء هذا الجيل . . كان بينهم رجال مبرومو الشوارب ، خضر الذقون ، وكان فى مدرسة محمد على فى ذلك الوقت — مثلا — تلميذ سمكرى ألحق بالمدرسة للعب الكرة ، وكان يجلس فى فصول السنة الرابعة ، وهو لايعرف فك الخط .

كان التلميذ إمام الفك . . « رجلا » ربعة ، وكان يبدو عليه الصمت والهدوء . . هدوء « الساهى اللى تحته دواهى » يسبل عينيه ويطرق برأسه ، بادى الحياء ظاهر الخجل . . . يجلس بجوار أبيه ساكناً منكمشاً ، تقطر منه الطيبة والبراءة وهو الذى لم يترك ماخورة فى طنطا إلا وطرقها ، ولم يدع غرزة إلا ودخلها .

هذا هو الابن النقى التقى ، الطاهر الذيل ، المغمض العينين الذى يخشى أبوه أن تتفتح عيناه على مفاسد القاهرة .

هذا هو الوديعة التى تسلمها العبقريان لتربيتها والسهر عليها . . .

وأنا أعرف أبى جيداً ، وأعرف أنه لم يكن لديه وقت لتربية أولاده ، فما بالكم بأولاد غيره ؟

أذكر مرة أنه نهرنى بشدة لا لأنى ألعب ، بل لأنى أذاكر دروسى ، وأذكر أنه أعطى أخى أحمد ريالا . . لا لأنه نجح ، بل لأنه ضرب أحد أبناء الجيران — وكان الولد أكبر منه — روسية فبطحه وأسال دمه . . وأذكر كذلك أن والدتى كانت تجمعنا أنا وأخوى فى حجرة صغيرة وتغلق علينا ونحن نستذكر دروسنا ، لا خوفاً علينا من الخروج ، بل خوفاً من دخول أبينا علينا وتعطيلنا ، ولم يكن يجدى معه الإغلاق ، فقد كان يصعد إلى أحد المقاعد ويشاغلنا من الشراعة الزجاجية .

تلك كانت طريقة أبى فى التربية ، ولو سألنا أحد أبناء الشيخ البرقوقى — ابنه عاطف مثلا — عن طريقة أبيه فى تربيتهم ، لما وجدناها خيراً من ذلك .

وهكذا ترك الشيخ الفلك وديعته البريئة الطاهرة

فى كنف المربيين الفاضلين ، وعاد إلى بلده هادئاً مطمئناً .

وكان أول مافعله هذا (الوديعة البريئة) أن ذهب إلى أحد نظار المدارس الأهلية وساومه على أن يأخذ منه ربع المصروفات ، نظير أن يقيده فى المدرسة ، مجرد قيد ، على أنه لن يضايقه لابحضور ولا بأخذ كتب ، ولا بأى شىء . . كل ماهو مطلوب من الناظر هو أن يثبته لديه كتلميذ . . نظير خمسة جنيهات .

وتم الاتفاق ، وأثبت « إمام » نفسه كتلميذ فى المدرسة . ثم انطلق على حل شعره . . يعيث — بقية المصروفات — فى القاهرة فساداً .

ومرّت الأيام والأسابيع والشهور . . وإمام — كما يقولون — مقطع السمكة ودليلها . . حتى طبقت شهرته آفاق المواخير ، ولم يعد هناك بيت من البيوت (السر) . إلا ولإمام فيه مركز ممتاز .

وبدأت الأخبار تتواتر على أبيه — من أهل البلد الذين يزورون القاهرة — بما أضحى عليه حال ابنه ، ولم يصدق الشيخ فى بادىء الأمر ، وظن المسألة كلها من باب الكيد ، والحسد .

وأخيراً لعب الفار فى عبه ، وأصابه القلق ، ولم ير خيراً

من الذهاب بنفسه إلى القاهرة ليرى بنفسه جلية الأمر وليطمئن قلبه .

وطب على ولده ، وواجهه بالتهم والإشاعات ، وأسبل الابن عينيه ، وأخذ يبدى أسفه على سفالة أهل البلد وغرامهم بالأراجيف والأكاذيب والتشنيعات .

وهدأ الأب بعض الشيء ، وخفت وساوسه ، وأراد أن يقطع الشك باليقين . . فأخذ ولده وذهب إلى الشيخ البرقوقى والأستاذ السباعى ليتأكد من حسن سير ابنه وطيب سلوكه وليزيدهما توصية به ، ورعاية له .

ووصل الشيخ وابنه الهادى الوديع فى يده ، إلى المكتبة حيث وجد المربيين الفاضلين فى محلهما المختار .

وبعد التحيات ، بدأ الشيخ الفك الحديث :

— والله يا جماعه ماخبيش عليكم . . أنا بلغنى عن الواد إمام حاجات وحشه جوى .

— خير إن شا الله ؟

— بلغنى أن سيرته مهببه ، وأنه داير على حل شعره ينط هنا وهناك ، وأنه مش سائل لا فى دروس ولا فى مدرسه ، وأن حالته زفت وقطران .

وتعالت الدهشة من الطرف الآخر :

— إمام ! مين قال كده ياسى الشيخ ؟ حد يقول الكلام ده ؟ استغفر الله العظيم . . ده إمام زى القطه المغمضه .

وزادت القطة المغمضة تغميضاً وانكماشاً ، وقال أبى فى سره :

— والله مسيرك تروح فى شر أعمالك ياإمام الكلب ، وتفضحنا معاك .

وعاد يقول للشيخ :

— إمام ؟ إمام سيرته مهببه ؟ ده من المدرسه للبيت ومن البيت للمدرسه . . ده حايموت نفسه من المذاكره ، وإحنا حتى قلنا له ياإمام حقك ترحم نفسك شويه . . مش كده يا إمام ؟

وأطرق إمام برأسه موافقاً . . لقد قالوا له هذا حقاً ، وسألوه أن يرحم نفسه ، ولكن مم ؟ ؟

وهكذا أخذ صاحبانا يطمئنان الأب ، وانطلقا يعددان محاسن إمام ويضربان المثل على طيبته وصلاحه . . . حتى اقتنع الشيخ وأطرق برأسه خجلا من نفسه :

— والله أنا برضه جلت كده . . بس كلام الناس وسوسنى . . الله يلعن أبوهم .

— غايرين منك ياعم الشيخ ، حاسدينك على ابنك الفالح .

— معلهش . . الله يسامحهم . . أهو برضه جينا شفنا كم واطمأنينا عليكم . .

وهم الشيخ بالنهوض وقد هدأ قلبه تماماً ، ومد يده للسلام . .

وفى نفس اللحظة بدت عربة كارو . . قد اعتلتها حفنة من نساء (وجه البركة) وقد علا ضجيجهن وارتفعت أصواتهن بالغناء « الفاتحة للعسكرى » . . وارتدت إحداهن طربوشاً وأمسكت بيدها عصا ووقفت على العربة تهز بطنها وردفيها وجلست (البدرونة) بجسدها السمين المترهل والمنديل الأحمر أبو أويه وقد تهدلت ملاءتها من حافة العربة وأخذت تدق على طبلة بيدها وانهمكت بقية النساء فى التصفيق .

وكان من المحتمل أن يمر المنظر بسلام . إذ لم يكن فيه مايثير العجب ، فطالما مرّت أمام المكتبة أمثال تلك العربات ، ولكن المصاب وقع عندما لمحت إحدى النسوة صاحبنا إمام وقد وقف وراء والده وهو يمد يده للسلام على الشيخ البرقوقى .

وضربت المرأة بيدها على صدرها وصاحت متسائلة :

— بت ياتفيده . . مش هو ه دا إمام ؟

— آه والنبي ياختي . . باينه هوا .

وتعالت أصوات النسوة :

— يوه . . دا إمام .

— ينيلك يا إمام .

وصاحت البدرونه :

— ودا إيه اللي جابه يا اختي في وسط المشايخ . . ؟ يوه جاتك نيله .

وطلبت النسوة من العربجي أن يوقف العربة ، ونزلت إحداهن إلى الأرض صائحة :

— المنيل على عينه عليه لي ريال . . بقاله شهر . . فين يا واد الريال ؟

* * *

ويهز أبي رأسه وتنطلق منه قهقهة وهو يقول لي :

— لم أشعر في حياتي بخجل أشد مما شعرت به في ذلك الوقت . . لقد أحسست أنا والشيخ البرقوقي أن دشاً بارداً قد صب علينا ، ولم ندر ماذا نقول ولا ماذا نفعل ، ووقفنا أمام الشيخ الفك ونحن مشدوهين مبهوتين .

وانصرف الشيخ بولده فلم نبصر لهما بعد ذلك وجهاً .

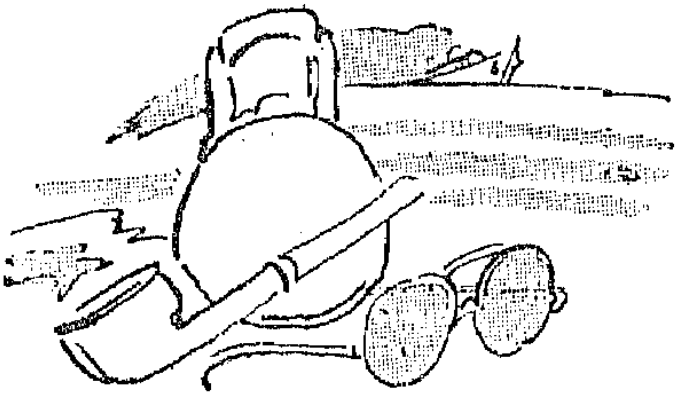

الأقرع النزهي . انسان أقرع ونزهي .
أعني أقرع الجيب ، خاوي الوفاض . .
بينه وبين النقود خصومة مستحكمة وفراق
دائم .. وهو بعد كل هذا نزهي فنجري .

النزهي ..

obeikandl.com

هذا ذات صيف ، فى زمن خلا ، زمن كنت فيه نموذجاً للأقرع النزهى . . !

ويبدو لى أن من الخير قبل أن أبدأ القصة أن أعرف القارىء شيئاً عن حقيقة هذا الأقرع النزهى .

الأقرع النزهى . . إنسان أقرع ونزهى . . أعنى أقرع الجيب ، خاوى الوفاض . بينه وبين النقود خصومة مستحكمة وفراق دائم ، وهو بعد كل هذا ، نزهى فتجرى ، ابن حظ ، محب للفرفشة ، والصرف ، والتهييص ، فهو يصرف ما فى الجيب مع خلو الجيب ، ويأس من الغيب ، ويضيع القرش الأبيض ، دون أن ينتظر من غده أسود ولا أبيض . ويتزه نفسه بكل ما يحب ويشتهى ، وعلى الله التدابير .

أقول إنى كنت فى زمن خلا عندما وقعت حوادث هذه القصة ، نموذجاً للأقرع النزهى ، ولست أريد أن يفهم القراء من قولى « كنت فى زمن خلا » ، أنى قد أضحيت من كبار الأثرياء ، وأن جيبى قد نبت شعره وزال قرعه ، بل كل ما فى الأمر ، أنى لم أعد نزهياً ، وأن ضيق الوقت

وكثرة المشاغل ، وأعباء الحياة . قد أضاعت من النفس خفتها وصدتها عن اللهو والعبث ، وسدت فى وجهها سبل الفرفشة والتهيص .

وعندما أجلس اليوم لأكتب فى حمارة القيظ ، ولهيب الحر ، وأنا حائر ، بين أن أفتح النافذة فأكتوى بسياط الشرد ، تلفح وجهى وتشوى بدنى ، وبين أن أغلقها ، فأكتم أنفاسى ، وأسلق جسدى ، وأضحى كما يقولون « عرقى مرقى » .

عندما أجلس لأكتب وسط هذا الجحيم الأرضى ، يحلو لى أن أعزى النفس ببعض ذكريات صيفية تندى عليها وتبل حرارتها ، وتعوضها ولو بالوهم عن متعة المصيف وإغراء الشاطىء والمستلقيات على الشاطىء .

كنا ثلاثة ، وخير ما أستطيع أن أصف به أنفسنا حينئذ ، هو ثلاثة صبية ، وإن كنا نحس وقتذاك أننا فى عنفوان الرجولة ، وأنه لا يوجد على ظهر الأرض أرجح منا عقلا وأكثر حكمة ، وأن كل الناس — عدانا — ما بين صبى أعمق وعجوز مخرف !

وكنا نكون عصبة ، مهرجة ضاحكة ، لا نكاد نعترف بأن فى الحياة أحزاناً ، وكان شعارنا بسمة على الشفاه ،

وقهقهة تصدر من القلوب قبل الأفواه ، نستنبت الضحك من منابت الحزن ، ونستدر البسمات من موارد البكاء ، لا يكاد يوجد ما يحبس نكاتنا ويغلق أفواهنا ، حتى فى مواقف العزاء وتشييع الجنازات ، كنا نكسو وجوهنا علائم الحزن بشق الأنفس ، إذ نذهب لتعزية أحدنا فى وفاة أحد أقاربه ، فلا نكاد نبصره وقد وضع طربوشاً اقترضه فى منتصف رأسه ، وأطرق برأسه مدعياً الحزن ، حتى تصيبنا نوبة من الضحك نلاقى الأمرين فى كتمها .

وكنا نستطيع أن نجعل من أى إنسان — مهما ثقل دمه — مورد تسلية لنا ، بمراقبة حركاته ، وتمثيل أعماله وتصرفاته .

وكنا نلعب معاً فى تيم الكرة بالمدرسة ، السكند تيم طبعاً ، ولم يكن وضعنا فى التيم ناتجاً عن إجادتنا للعبة بل كان منا مجرد عفونة وتلحمة وخوف من مراقب الفريق من طول لساننا ورغبة منه فى مداراتنا والانتفاع بنا فيما يتطلب المشاكسة والمناكفة .

وكنا دائماً السبب فى هزيمة التيم ، فما أظن أن ملاعب الكرة قد رأت أسوأ منا ، ومع ذلك ، فلم يكن أسهل علينا من تقارض المديح وتبادل الثناء ، و « الهارد لك »

ويخيل لى أنى أستطيع — بمنتهى السهولة — أن أملأ عشرات الصفحات . . عن حوادثنا وقتذاك وعن النوادر المختلفة التى كانت تقع لنا ، ولذا أخشى أن أترك لنفسى العنان فأملأ حيز القصة ، دون أن أكتب القصة ، وأن أختتم كتابتى بمجرد مقدمة بلا قصة ، وعلى ذلك فمن الخير أن ندخل على القصة رأساً .

فى ذات صيف رأينا — بلا داع — أن نذهب للتصييف فى الإسكندرية ، وعندما أقول بلا داع ، أقولها قول الواثق الجازم ، لأنه ، أولا ، لم يسبق لنا عادة التصييف ، بل كنا قانعين كل القناعة بقضاء الصيف ما بين روض الفرج وقصر النيل ، وثانياً ، لم تفكر عائلة أى منا فى التصييف حتى يكون ذلك داعياً لسفر أحدنا وأخذ صاحبيه معه ، وثالثاً ، لم يكن لأحد منا أى أقارب يمكن أن يستضيفونا فى الإسكندرية . ورابعاً لم نكن نملك حرية السفر دون أهلنا ، وخامساً وهو أهم من كل ما سبق ، لم يكن معنا النقود التى تكفينا للتصييف .

ومع ذلك ، ورغم كل ما سبق ذكره ، قررنا التصييف ، فقد كانت الحكمة الوحيدة التى نتبعها يومذاك ، هى أنه

لا مستحيل فى الحياة ، وما دمنا على قيد الحياة ، فكل شىء ممكن عمله .

وهكذا بدأنا الاستعداد للتصييف وتحايلنا على أهلنا مدعين أننا سنذهب فى رحلة مع المدرسة لنعسكر فى خيام على شاطىء سيدى بشر ، واستطاع كل منا الحصول على قدر ضئيل من المال ، جمعناه على بعضه ، لنصرف منه معاً ، وبدأنا بموازنة الميزانية .

ولم تكن موازنتها — نظرياً — بالأمر العسير . فما كانت لدينا أقل فكرة عن أوجه الصرف وتكاليف المعيشة ، فقدرنا ما شاء لنا الجهل أن نقدر ، واستطعنا بمنتهى البساطة أن نسوى المنصرف بالإيراد .

وبدأنا الجهاد ، فقد كانت العملية لا يمكن أن تكون — بهذا المبلغ التافه — إلا جهاداً وكفاحاً لا من أجل التصييف والتنزه والفرفشة ، بل من أجل الحصول على لقمة العيش والمأوى والستر ، أى أنه كان علينا أن نجاهد ، لا من أجل المتعة ، بل من أجل البقاء — فى المصيف — على قيد الحياة .

بدأنا الجهاد محملين بالزاد والزواد ، مما استطاع كل منا تهريبه من بيته ، من المأكولات الجافة التى يمكن أن تعيننا

فى الضراء وتشد أزرنا فى البأساء ، وحصلنا بذلك على كمية لا بأس بها من القراقيش وعلب المربى والسردين . واستطعت أنا — بالإضافة إلى ذلك — أن أسرق قدرة من الجبنة القديمة وصفيحة عسل وبرطمان مخلل . . كنا نعدها يومذاك من أثمن الأسلاب وأقيم الذخائر .

وككل أفرع ونزهى ، صممت على ألا نذهب إلى المصيف إلا بعد أن نبتاع ملابس المصيف اللازمة — فى عرفنا — لكل أرستقراطى منتفخ الجيب ، من مايوه صوف وبرنس ، إلى قميص حرير أبيض سيور وبنطلون فانلة ، إلى كاسكت ونظارة سوداء وبيب (غليون) . ولما كانت ميزانيتنا العجفاء لا يمكن أن تسمح لكل واحد منا أن يبتاع طقماً كاملا . فقد ابتعنا واحداً من كل نوع واتفقنا على أن نقسم الطقم الأرستقراطى إلى ثلاثة أقسام نتبادلها يوماً بعد يوم . فواحد منا يرتدى المايوه والبرنس . والثانى يرتدى القميص والبنطلون ، والثالث يتمتع بالكاسكيت والنظارة والبيب .

ورحلنا عن القاهرة ونحن أقرب إلى أهل الريف . بذلك الخرج المملوء بالقراقيش وقدرة المش وصفيحة العسل وبرطمان المخلل ، وهبطنا إلى الإسكندرية وقد تملكنا

إحساس المقدم على مغامرة اكتشاف مجاهل وغياهب . .

ولست أريد الإطالة فى سرد التفاصيل والعقبات التى صادفتنا حتى استقرت بنا الأمور — بقدرة قادر — فى إحدى الكبائن الخشبية فى بقعة ما ، بشاطىء الإسكندرية ، والواقع أنى لا أدرى حتى الآن كيف أمكننا تذليل العقبات وتخطى الصعاب ونحن على ما كنا عليه من جهل وسوء تصرف ، ولكن الذى أدريه أننا اتبعنا نظرية « دع الحياة تسير » ، وأننا « ما دمنا أحياء فلا شىء مستحيل » ، وهكذا وجدنا الأمور تتبسط وتحل ، والحياة تسير بنا ، حتى تستقر فى كابينة « مدام ماريكا » ، التى تنازلت لنا عن حق سكناها ، وأخلتها لنا ، نظير ثلاثة جنيهات ، وبرطمان المخلل ، وزيارتها لنا ثلاث مرات يومياً ، لتطمئن على سلامة الكابينة ، ولتتأكد أننا لم نحملها ونعود بها إلى القاهرة .

وجلسنا فى الكابينة الجرباء المشققة ، كنا نسير فيها فتقرقع أرضيتها تحت أقدامنا فتذكرنا بقول الشاعر :

ودار خراب بها قد نزلت
ولكن نزلت إلى السابعـــة
فلا فرق ما بين أنى أكون
بها أو أكون على القارعة

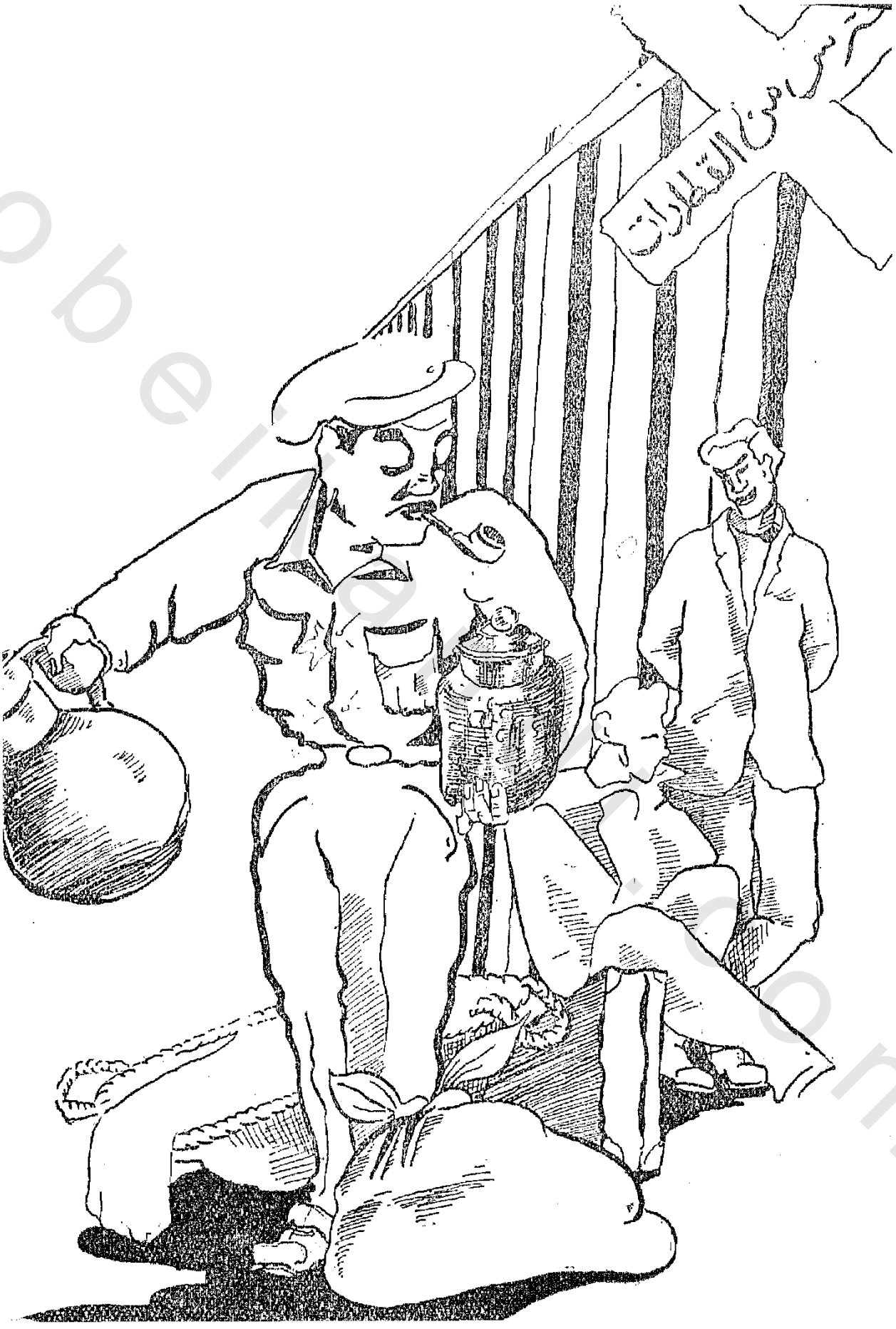
آمن من القبور

وأخشى بها أن أقيم الصلاة
فستجد حيطانهـــا الراكعة
إذا ما قرأت إذا زلزلت
خشيت بأن تقرأ الواقعة

ولم تكن كابينة « مدام مريكا » بأفضل كثيراً من دار الشاعر . ومع ذلك فقد كان بنا من فرط الفرحة بها ، إحساس قاطن أنطونيادس ، وساكن الزعفران . وأخذنا نتمطى ونتلوى على الفراش الوحيد والمرتبة الملقاة على الأرض ، كأننا لم ننم على فراش أو مرتبة من قبل أو كأننا لم نتعود أن ننام بالجملة على فراش واحد .

ورتبنا الأطعمة فى دولاب المطبخ واتفقنا على أن نكون عقلاء منظمين ، وأخـــذنا فى كنس الكابينة ومسحها وتنظيف حيطانها مما علق بها من الأتربة ووضعنا فيما بيننا نظاماً للخدمة — إذ لم يكن من المعقول أن نفكر فى إحضار خادم — واتفقنا على أن تكون الخدمة بالنوبتجية ، فيتولى كل منا أمر الدار فى يوم كامل يبدأ من الشروق وينتهى فى شروق اليوم التالى ، على أن يؤدى لها كل ما يلزم من مسح وكنس وشراء طعام وطبخ

وغسل أوان وغسل ملابس وكيها ، ومقابلة « مدام ماريكا » والإعجاب بها .

وسارت بنا الحياة سهلة لطيفة مرحة هانئة ، وتعوّد كل منا أن يقوم بدور خدمته على أتم وجه بلا تقصير ولا تذمر ، وتعوّدنا كذلك تبادل مهمات الأرستقراطية — وهى ملابس الشاطىء — دون أن يحدث بيننا أى خلاف أو نزاع .

وبدأنا مغامراتنا الغرامية . مغامرات عابرة طيارة ، ولم تكن متعتنا بالمغامرات نفسها قدر متعتنا بالتفاخر بها ، وبأن يقص كل منا تفاصيلها على الآخرين ، مضيفاً إليها الحواشى والرتوش ، مضفياً عليها من بنات أفكاره ما استطاع من أوهام وأكاذيب .

وفى ذات يوم ، خرجت وحدى قبيل الغروب للتنزه على الكورنيش ، فقد كان أحد الرفاق منهمكا فى مقابلة مدام ماريكا التى لم تنقطع قط عن الحضور ، وفى تلقى تأنيبها على الإسراف فى استعمال المياه وكان الرفيق الآخر — كما يدعى — على موعد غرام .

وكنت أشعر فى ذاك اليوم أننى على أتم حال من الوجاهة والأرستقراطية ، فقد كان نصيبى فى ذات اليوم من اللوازم طقم النظارة السوداء والكاسكتة والبايب .

وكنت قد استعرت من صاحبي الملازم للدار — أي الذي سيقوم بالخدمة — نصيبه المكون من القميص الحرير والبانطلون الفانلة الأبيض .

وقد كان يتملكني وقتذاك وهم عجيب من النظارة والكاسكيت والبايب ، إذ يخيل لي بمجرد أن أسير بهذه الأشياء أني قد أصبحت إنساناً آخر أقرب إلى الملوك والأمراء ونجوم السينما ، وكنت أستغلها أقصى استغلال فلا أتركها لحظة واحدة ، حتى عندما تسقط الشمس ويسود الظلام ، وكانت الكاسكيت تستمر قابعة على رأسي ، والنظارة السوداء ملاصقة لعيني ، ومالي أنا ولسقوط الشمس وشروقها . إن الأدوات التي ألبسها ، أدوات أرستقراطية ، فهل يعقل أن تغيب الأرستقراطية والمظهر الجذاب بمجرد غياب الشمس .

وهكذا سرت بالكاسكيت والنظارة السوداء والبايب والبانطلون والقميص ، وقد خيل إليّ أن أنظار الناس قد تسمرت فيّ . . وأخذت تحدجني ، وأني قد بت شغلهم الشاغل ، وأن الشفاه الحلوة العذبة لم يعد لها عمل إلا التهامس عليّ والإعجاب بي .

وهززت رأسي وقلت لنفسي معهم حق ، فما أظنهم قد

رأوا من قبل من ارتدى الطقمين معاً ، طقم الكاسكت وطقم القميص والبنطلون .

وصممت على انتهاز هذه الفرصة التى قل أن يجود بمثلها الدهر . وأن أقدم على استغلالها ، فألقى بدلوى فى الدلاء ، وأن أبدأ عملية المعاكسة و « البصبصة » وأنا على حالى تلك من الوجاهة والأناقة ، فلا أظننى أستطيع أن أقع على صيد أثمن مما يمكن أن أقع عليه وأنا بهذه الأرستقراطية المزدوجة .

ويشاء الحظ العجيب أن يقع الصيد فى غمضة عين . . وأى صيد ! ! صيد لم أكن أحلم به . . ولا أفكر فيه ، ولا أتطاول إليه .

كانت من نوع يجذب النظر من بين الآلاف الموجودة . نوع براق أهيف فائر ، صارخ الفتنة ، « زاعق » الجمال . لا يستطيع أى نوع من الثياب أن يستر محاسن جسدها . فهى عارية عارية ، وكاسية عارية ، لا تملك العين إلا أن تستشف من وراء الثياب ما أخفت الثياب .

ولست أدرى ، أكان حقاً سر النظارة السوداء والكاسكيت والبايب والقميص الحريرى هو الذى أوقع

الفاتنة فى شراكى ، أم كانت المسألة مجرد بخت حلو ، وفضل من الله . . ؟

على أية حال ، لم يكن لدىّ وقتذاك فرصة للتفكير فقد كنت فى حالة « دوخان » من فرط الفرحة ، ووجدت نفسى — بدون جهد — أقف بجوارها متكئاً على الكورنيش . وقد تلاصق كتفانا وأخذنا نتحدث بلا كلفة كأننا أصدقاء قدامى .

ولم تكن فرحتى فى الواقع ناتجة عن متعة بالفتاة نفسها بل كانت ناتجة عن تصورى ما أنوى قصه على صاحبى ومدى ما أستطيع التفاخر به . وكنت أرتب فى ذهنى التحابيش والتحاوير التى أنوى إضافتها إلى مغامرتى الجديدة ، وكنت أمعن النظر فى وجه الفتاة حتى أستطيع أن أصفها لهما جيداً .

واستمر الحديث بيننا هادئاً ممتعاً ، حتى أخبرتنى فى خلاله أنها ابنة « فلان باشا » . وأحسست برأسى يدور ، من يصدق هذا ، ابنة باشا مرة واحدة ؟

وتمنيت لو استطعت أن أتركها وأعود إلى البيت حتى أحضر الصاحبين الخبيثين ، ليشاهدا بنفسيهما « الأملة » التى أصبت بها وليتأكدا أن مغامرتى حقيقة واقعة ، لا ادعاء

فيها ، وأن ابنة أحد البشوات ، قد سقطت فى هوى . . العبد الفقير .

وافترقنا بعد أن تواعدنا على اللقاء فى السابعة صباحاً والشاطىء خال ، وتركتها وانطلقت إلى الكابينة لأقص على صاحبى ما حدث لى وأنبئهما بالموعد الصباحى .

ولم يبد عليهما ، علائم التصديق ، وهزا رأسيهما . كأنهما يوافقان على كذبة من معتاد للكذب ، فقلت لها ، بلهجة الواثق ، أنهما يستطيعان التأكد من صدق قولى بأن يذهبا للشاطىء فى الساعة السابعة حيث ألتقى بالحبيبة الأرستقراطية .

وهزّ أحدهما رأسه مستنكراً وتساءل :

ـــ الساعة السابعة ، باكر ؟

فقلت فى ثقة :

ـــ أجل .

ـــ أنسيت أنك نوبتجى باكر .

نوبتجى ! ! . . أجل ، لقد نسيت النوبتجية .. إن علىّ أن أقوم بدور الخدمة فى الغد .

ولكنى لا بد أن أذهب ، ليس هناك قوة فى العالم يمكن أن تمنعنى من الذهاب .

وسألتهما أن يبادلاني ، فأبيا ، وتوسلت إليهما فأصرا على الإباء .

واستيقظت في الساعة الخامسة صباحاً بعد أن صممت على أن أنهي كل ما لدى من عمل قبل أن تحل السابعة ، ثم أنطلق في السابعة إلى موعدي ، ماذا يريدان مني أكثر من ذلك ؟

ودخلت المطبخ مشمراً عن ساعدي وبدأت أعد معدات الطهي الذي جهزت لوازمه من الليل .

وكان عليّ أن أبدأ بغسل النحاس ، وفتحت الصنبور فإذا بالمياه مقطوعة .

ولم تمض برهة قصيرة حتى كنت مستقراً بكوم الحلل أمام الحنفية على شاطىء البحر ، وبدأت عملية الدعك بالرمال مرة والغسل بالليفة والصابون مرة أخرى حتى جعلت النحاس يبرق من فرط النظافة ، أو كما يقول أهل البيت « فل مفتح » .

وفركت يدي فرحاً واغتباطاً . . وهممت بالنهوض ، راضياً عن نفسي كل الرضاء .

ورفعت بصري ، فإذا بي أجدها هي ، بدمها ولحمها وصدرها وساقيها ، الحبيبة الأرستقراطية ، ابنة الباشا .

تصوروا موقفى ، وهى تتأملنى وقد جلست أمام كوم النحاس بالجلباب كأحقر خادم ، وقد تلوثت يداى بالهباب وأغرقت ملابسى بالمياه والرمال !

وأحسست بالدنيا تدور بى ووجدتنى بحركة لا إرادية ، أرفع يدى إلى وجهى فألوثه بالهباب ثم أقول لها بصوت ذليل متواضع كأننى لست أنا ، بل مجرد خادم لى :

— سيدى جايلك حالا .

ثم ألفع النحاس على كتفى وأسير مغنياً بأعلى صوت :

« سلم على . . سلم علىّ . لما جابلنى وسلم علىّ ، يا بوى يا بوى » .

ووصلت إلى الكابينة فوضعت النحاس فى المطبخ وجلست برهة أستريح من عناء الخضة ، ثم نهضت متمالكا نفسى ، وأخذت أزيل من وجهى الهباب وقد صممت أن أثأر لنفسى من صاحبى فلا أذيقهما طعاماً . . وأن أرتدى كذلك الطقم الأرستقراطى بالكامل فأحرمهما من التمتع بنصيبهما .

وهكذا انطلقت لتوى من الدار مرتدياً المايوه الصوف والقميص الحرير ، والبنطلون ، والكاسكت ، والنظارة ،

والبايب ، وفوق كل هذا ، البرنس ، حتى لا أترك لها قطعة واحدة من قطع الأرستقراطية .

وعدوت إلى الشاطىء فوجدتها مستلقية على الرمال وحيتها فى رقة ، فنظرت إلىّ فى دهشة ووجدتها تقول مستنكرة :

— انت لابس هدوم سيدك ؟ !

يا للفتاة الخبيثة ، لقد أصرت على أننى ما زلت الخادم ، ولم تصدق أبداً أننى فى هذه المرة . . كنت « سيدى » نفسه .

وأخيراً اضطررت لأن أعترف لها بكل التفاصيل وأن أقول لها إنى صعقت عندما رأيتها أمامى وأنا أغسل الحلل .

وكانت رفيقة لطيفة عندما قالت ضاحكة :

— لو لم تفر لعرضت عليك المساعدة .

وما زالت حتى الآن ، إذا ما لقيتنى تسألنى مقهقهة :

— إزاى سيدك ؟

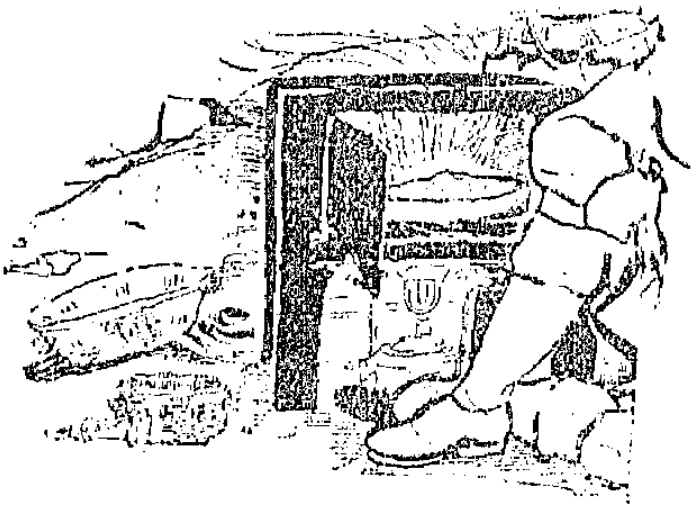

ودق المدفع وأقبل الضباط علي خيمة الأكل وفوجئوا بالصينية تتوسط السفرة . . وجلست أنا والبارودى نفرك أيدينا وقد كسونا وجوهنا علامات التواضع وانكار الذات .

صينية قرع . .

obeikandl.com

أن هنالك سؤالا أعيتني إجابته كهذا السؤال ؟ .

سأظن ماذا يحدو صاحبنا « الضّوْ » إلى خلط الطعام بالجاز ؟ .

أربعة أشهر !!.. مائة وعشرون يوماً .. ونحن لانذوق لقمة واحدة . . قد خلت من الجاز .

أترى الخبيث له بالجاز ولع فهو يدسه فى طعامنا . . ليل نهار . . حتى يتمتع بما تبقى منا مغموراً بالجاز ؟ .

لا أظن . . فلو أن الأمر كذلك لكان خيراً له أن يحتفظ بكمية الجاز التى يخلط بها الطعام . . ليخلط بها البقايا فقط . فيستطيع بذلك أن ينعم فى طعامه بكمية من الجاز أوفر .

أترى الغبى حريص على صحتنا . . فهو يدس الجاز فى الطعام حتى يحصننا به ضد الأمراض .. ويجنبنا شر الأوبئة ؟

أم تراه قد مل عشرتنا ، فهو يجد فى الجاز خير وسيلة للتخلص منا والقضاء على حياتنا ؟

من يدرى ؟ كل هذا جائز ومحتمل فلا أظن أن هناك شيئاً مستبعداً على صاحبنا ، فهو إنسان غير مفهوم لاتستطيع أن تميز فيه ناحية الشر أو الخير ، فقد مزج فى نفسه خيره بشره وأضحى خليطاً معقداً لايستبينه المرء حتى بعد طول دراسة

فأنت تظلمه إذا ما قلت عنه شريراً ، وتظلم نفسك إذا ما ظننت به صلاحاً واطمأننت إليه .

ولكن ما ذا يجبرنا على التمسك بهذا الضَّوْ ، وعلى الرضوخ لتناول طعامه المخلوط بالجاز ؟

قالوا ماذا يجبرك على السوء ، قلت ماهو أسوأ منه ، وهذا هو نفس ما كنا نقوله لأنفسنا وقتذاك ، فما أجبرنا على احتمال سوء الضَّوْ ، إلا لأننا لم نجد ما هو خيرٌ منه

كان الضَّوْ على حد قولهم ، يبيع فينا ويشترى ، وكنا إذ ذاك بالواحات البحرية حوالى عام ١٩٣٩ بإحدى كتائب آلاى السيارات الخفيفة وقد احتللنا الصحراء التى تشرف على الواحات من ناحية النقب رقم ١٣ وكانت معنا إذ ذاك بعض وحدات المدفعية والدبابات ، التى انتقلت إلى هناك عقب إعلان إيطاليا الحرب .

ولقد وقع اختيارنا عند الرحيل إلى الواحات على العسكرى الضَّوْ ، أو على الحاج الضَّوْ كما كان يسمى نفسه ، لكى يقوم بمهمة الطبخ لضباط الكتيبة .

أقول إن اختيارنا قد وقع عليه ، ولو أردت التعبير لقلت إننا أرغمنا على اختياره ، فما تقدم لنا أحد من عساكر

الكتيبة سواه ، عندما سألناهم عمن يجيد منهم عملية الطبخ .

وتقدم الضّو المذكور ، وأنبأنا فى «تقل» أنه كان يعمل طباخاً لأباظه باشا ، وعائلة أباظه مليئة بالباشوات ، وليس من باشا منهم إلا وعنده على الأقل طباخ ، ولم يكن من اليسير علينا أن نلف على الأباظية الباشوات لنسألهم واحداً واحداً عما إذا كان أحداً منهم قد استخدم طباخاً منذ بضع سنوات يدعى الحاج الضّو .

لم يكن هذا بالطبع أمراً يسيراً ، وعلى هذا اكتفينا بتصديق صاحبنا ، وقلنا فى أنفسنا أننا حتى لو حذفنا عامل المبالغة من قوله ، فلن يكون أقل من مرمطون عند أباظه باشا ، وفى هذه الحالة سيكون لديه ولو فكرة بسيطة عن الطعام ، ولا بد أنه سيتعلم الطبخ بمضى المدة .

وعلى هذا سلمنا له زمامنا من حيث الطعام ، وبدأ الضّو يجرى فينا تجاربه ، كأننا أرانب فى معمل .

وبعد بضع أكلات ، اتضح لنا أن الضّو هذا قد يكون حقاً اشتغل عند أباظه باشا ، ولكنه قطعاً لم يكن طباخاً ، ولا مرمطوناً ، ولا سفرجياً ، قد يكون اشتغل « سايس » ، سائقاً لسيارة ، سكرتيراً ، أى منصب ، عدا المناصب التى

لها صلة بالطعام ، اللهم إلا فى حالة واحدة ، وهى إضراب أباظه باشا عن الطعام .

وبمضى المدة ، وبطول المكث بين الحلل والكوانين ، حصل الضّو على بعض الدراية فى فن الطبخ ، أو قل إن بطوننا اخشوشنت واعتادت شظف العيش ، كما يعتاد الإنسان كل سوء يطول به ، وأضحينا أشبه بالحواة الذين يبلعون الزجاج والزلط .

أقول إننا اعتدنا سيئات هذا الضو ، وبدأنا نستسيغ طعامه إلا أمراً واحداً ، وهو إصراره على خلط الطعام بالجاز .

« ياسى ضَوْ حرام عليك كفايه جاز بقى » .

هذا هو الرجاء الذى كنا نسوقه إليه عقب كل أكلة . ولما وجدنا أن رجاءنا لم يلق منه أذنا مصغية ، حاولنا أن نسوقه إليه فى صورة أخف على نفسه فقلنا له :

« طيب بلاش تشيل الجاز خففه شويه » .

ولا هذا أيضاً .

« طيب ممكن تجيب الجاز فى سلطنيه لوحده ، واحنا نرشه هنا على الأكل ؟ » .

أبداً ، إنه لم يكن لديه أية ثقة فينا .

وفى ذات يوم أعلنا الثورة ورفعنا راية العصيان ، وكان أول من وضع بذورها ونادى بسقوط الضو ، هو أنور البارودى ، الذى جلس إلىّ عقب تناول إحدى الأكلات وقد أطرق برأسه وبدا عليه الوجوم والتفكير ، ثم رفع رأسه وقال فجأة :

— إسمع .

— نعم .

— ما الذى يجبرنا على الصبر على كل هذا الأذى واحتمال كل ذاك الضيم ؟

— ماذا تقصد ؟ .

— أقصد ما الذى يجعلنا نحتمل هذا الخنزير الذى سمم أجسادنا بالجاز والرمل .

— ومن الذى يطبخ لنا غيره ؟

— لا أحد ، نحن نطبخ ، هل تظن أن الطبخ عملية شاقة ؟ إنها أسهل مما تتصور ، إن الأمر لا يستلزم منا سوى شىء من الجرأة ، ما رأيك فى أن نطرده ، ونبدأ الطبخ من الغد ؟

وكنا فى رمضان والنهار أمامنا طويل ولا شىء يمنعنا من إجراء التجربة ، فلعلها ناجحة ولعلها تنقذنا من نير الضو .

وفى الصباح ، تحرك البارودى إلى خيمة المطبخ ، ونادى

على الضّوْ ، فخرج إليه صاحبنا بوجهه اللامع الممتلىء وقد علت وجهه ابتسامة الرضا وبدأه بالتحية قائلا بدون تكليف :

— صباح الخير يا فندم .

وأشار البارودى بأصبعه إلى حيث خيام العساكر وقال:

— على الأورطة .

ولم يكن الضّوْ قد ظن شراً إذ لم يخطر على باله قط أننا نستطيع أن نستغنى عنه فسأل البارودى ببساطة :

— حضرتك تريد شيئاً من الأورطة ؟ .

— أريدك أن تذهب إلى الأورطة ولا تريناوجهك أبداً

ولم يخف على الضّوْ أن هناك مؤامرة قد دبرت ضده فهز رأسه وأجاب :

— حاضر يافندم ، مفيش مانع أبداً .

وفى الساعة العاشرة أحضرت التعيينات وكانت تصرف للضباط وقتئذ نفس تعيينات الجنود ، وكان الخضار فى ذلك اليوم : قرعاً ، أو على الأصح قرعة ، فقد كان كل ما أحضر لنا فى خيمة المطبخ هى قرعة ، وحيدة ، ولا أشك أن أى قارىء — غير عسكرى — سيتساءل فى دهشة : « قرعة » واحدة لكل ضباط الأورطة ؟ .

ولست أشك أيضاً فى أن أى قارىء عسكرى ، ممن

أبصروا خضار الجيش المصرى ، سيتساءل فى دهشة كذلك « قرعة بأكملها لضباط أورطة ، لا ، لا ، هذه مبالغة ! »

والواقع أنها كانت . . قرعة وافية . . لا تقل بحال من الأحوال عن الشمامة . . الضخمة . . ونظر إلىّ البارودى ونظرت إليه (ولم يكن هناك غيرنا من يعلم بالمؤامرة التى دبرناها لطرد الضَّوْ) . . ثم نظر كلانا إلى القرعة الشبيهة بالقتيل وتساءلنا فى نفس واحد : « ماذا سنفعل بها ؟ » .

وفكر البارودى برهة ثم قال ببساطة :

ـــ نعملها صينية .

ـــ صينية قرع ؟ .

ـــ ولِمَ لا ، ألم تأكل فى حياتك صينية بطاطس ؟ .

ـــ صينية بطاطس ، أى نعم أكلت ، ولكن صينية قرع ؟!

ـــ وما الفرق بين البطاطس والقرع . . هل سترفض القرعة أن تعمل صينية ؟ .

ونظرت إلى القرعة السمينة ، ولم يبد لى أنها يمكن أن ترفض أى شىء فقلت له :

ـــ لا . . لا أظنها سترفض .

ـــ انتهينا .

ثم أمسك بالقرعة فى يده وقال :

ـ عليك التقشير ، وعليّ التخريط .

ووجدت أنه سيبدأ فى « استكرادى » من أول الأمر ، فإن عملية التخريط أسهل مائة مرة من التقشير فقلت له :

ـ لا ، بل عليك أنت التقشير ، وأنا عليّ الباقى .

وفكر البارودى برهة ثم قال :

ـ اسمع سنحضر الضّوْ لتقشيرها ، ثم نطرده بعد ذلك .

وحضر الضّوْ فقام بتقشير القرعة ، وقد بدت عليه علامات الشماتة ، وعند ما انتهى من التقشير أشار له البارودى أن يعود من حيث أتى .

وبدأنا فى تخريط القرعة فى إحدى الصوانى ، ثم خرّطنا الطماطم فوقها ووضعنا فوق الخليط كمية لا بأس بها من البصل ثم حشرنا اللحمة فى جوف الخليط ، وصببنا فوق كل ذلك ما يقرب من رطلين من السمن .

وفرك صاحبي كفه وبدت عليه علامات الغبطة والارتياح ثم قال متفاخراً :

ـ ألم أقل لك ؟ هذه هى كل « الشغلانة » ، ليس هناك أبسط منها ولا أسهل .

وأشعلنا وابور الجاز ووضعناه أسفل الفرن الصاج الأسود الذى أحضرناه معنا من القاهرة لمثل هذه الطوارىء

وهممنا بوضع الصينية داخله ، ولكننا توقفنا فجأة وقلت لصاحبي :

ـ الملح ؟ لقد نسينا الملح ، وكدنا نشمت فينا الضوء .

ـ آه ، لقد ذكرتنا ، تصور أننا كنا على وشك أن نفسد الطبخة ـ كما يقولون ـ لأجل « شوية » ملح . أين الملح ؟

ـ لا أظن أن الملح وحده يكفي ، بل لابد من التوابل الأخرى ، حتى تعطي الصينية طعماً ونكهة ، لابد من الفلفل والكسبرة والكمون والبهارات ، ففي هذه الأشياء البسيطة سر الطبخ .

وألقينا نظرة على صف العلب المرصوصة فوق المنضدة وقال صاحبي :

ـ أظن أن هناك أصناف معينة من التوابل تلائم الصوانى ، ويتحتم علينا أن نعرف بالضبط ماهي الأصناف التي تلائم القرع ، وإلا فسدت الصينية ، ثم لا تنس أنها لا توضع إلا بنسبة معينة وكميات محددة .

وبدت لنا مسألة وضع التوابل مشكلة عسيرة ، ولم نر خيراً من أن نرسل إلى الضوء نسأله ـ دون أن يحضر ـ عن أنواع وكميات التوابل التي توضع في صينية القرع .

وجاء المرسال يخبرنا أن الضو الخبيث يقول :

ـــ العلب عندهم، يأخذون منها مايشاءون ، هى كيمياء؟

ونظر إلىّ البارودى وتقدم إلى العلب وعليه سيماء من نوى أمراً جللا وقال :

ـــ دعك منه ، خليها بالبركة ، وربك يستر .

وبدأت التوابل تتدفق على الصينية بغير حساب ، هذه كسبرة ، وهذا كمون ، وهذه مستكة ، وهذا حبهان ، فلفل أسود ، فلفل أحمر ، كله خير ، كله بركه .

وأخيراً دخلت الصينية الفرن تتهادى باسم الله حافظها ومنضجها .

وجلسنا بجوار « المحروسة » ننتظر نضجها ، وبعد خمس دقائق فتح البارودى الفرن ليرى ما تم بها . . فوجدها بالطبع كما هى .

وأصابنا الملل ونحن جالسين أمام الفرن نفتحه كل دقيقة فنجد الصينية كما هى ، ونظر البارودى إلىّ وقال مستشيراً :

ـــ ما رأيك فى أن نحضر الضّوْ ليجلس ـ فقط ـ أمام الصينية ؟ .

ـــ فكرة طيبة بشرط أن يجلس على الحياد فلا يتدخل قط فى شئون الصينية .

وأحضرنا الضّوْ ، وذهبنا إلى خيمتنا وجلسنا نتسلى

بالقراءة ، وبعد نصف ساعة ذهبنا لنرى ماتم فى أمر الصينية وفتحنا الفرن ، ونظرنا إليها فإذا بها خضراء من غير سوء .

وهز صاحبى رأسه فى دهشة متسائلا :

— لماذا لا تستوى ؟ .

ثم نظر إلى الضّو فى غيظ وهمس إلىّ :

— يخيل إلىّ أن الخبيث يرفع الوابور من أسفل الصينية عندما نذهب ثم يضعه ثانية عندما يحس بنا .

ونظرت إلى الضّو الشامت الساخر وإلى الصينية الخضراء التى تأبى النضج وقلت له متشككا :

— جائز . . لا أستبعد على الخبيث أى منكر .

وعدنا إلى الخيمة وبعد نصف ساعة أخرى ذهبنا «نطل» على الصينية فإذا بها كما هى ، وأشار البارودى إلى خيام العساكر وقال للضو :

— إذهب ولا ترينى وجهك ، وإلا جنيت على نفسك .

وجلسنا أمام الصينية كأننا أسدا قصر النيل ، والوابور بجوارنا يئز ، والصينية ـ سامحها الله ـ لا تشعر ولا تتأثر .

وقرب ميعاد الأفطار ، والصينية لم يفارقها الاخضرار وأخيراً سلمنا أمرنا لله وأخرجناها فأدهشنا أنها استوت رغم أن لونها لم يتغير ، واعتبرنا الأمر حدثاً فى عالم الطبخ .

ودق المدفع وأقبل الضباط على خيمة الأكل ، وفوجئوا

بالصينية تتوسط السفرة ، وجلست أنا والبارودى نفرك أيدينا وقد كسونا وجوهنا علامات التواضع وإنكار الذات وقلنا ببساطة : « نحن الذين عملناها » .

ونظر إلينا (على مقلد) « قائد الكتيبة » بعد أن تذوق اللقمة الأولى ثم قال فى حسرة :

ـ والله عملتوها .

وذقنا الصينية وإذا بعنصر الجاز متوفر فيها كل التوفير .

وتبادلت أنا والبارودى النظرات .. نظرات الندم على أننا تركنا الضّوْ ينفرد بالصينية .

ولكن هل ترى الضو حقاً ، قد انتهز فرصة خلوه بالصينية فصب عليها الجاز ؟ .

لا نظن فقد كان الضو مظلوماً . . ولم نكتشف أنه مظلوم ، إلا عندما فرغت صفيحة السمن ، وأحضرنا صفيحة جديدة ، فانقطع الجاز ، لقد كانت صفيحة السمن الأولى هى منبع الجاز فقد كان سمنها مخلوطاً به ! ! .

وعند ما كانوا يسألوننا بعد ذلك ما الذى يجبركم على احتمال سوء الضّوْ ! كنا نجيب : ما هو أسوأ منه .

ولم يكن هناك أسوأ منه .. بل أسوأ من أى شىء على وجه الأرض سوى « صينية القرع » .

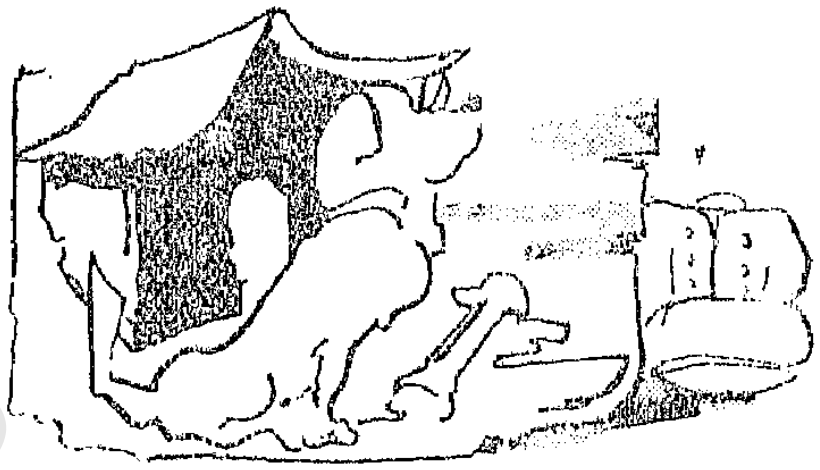

هذه القصة يقصها علينا طفل في السادسة من عمره ، فيحملنا بها الى دنياه . . دنيا قد نراها الآن تافهة ولكننا لا نستطيع أن ننكر أننا قد عشنا فيها أو فيما يشابهها زمناً رغداً . . زمناً ليت الليالي التي أمضته ترجمه . .

obeikandl.com

في سبيل كلب . .

كنا نجلس فى مخبئنا السرى — أنا وأخى الأكبر — وهو « عشة » من البوص على شاطىء النيل كانت تستعمل مصلى قبل أن يبنى المسجد الجديد — وقد نشر أخى أمامه صورة كلبين أحدهما رابض والآخر مضطجع ، وكان قد قطع الصورة من إحدى المجلات . ونظر إلىّ أخى متسائلا :

— ما رأيك ؟

فأجبته وأنا أحملق فى الكلبين بنظرات معجبة :

— رائعان !

وسادت فترة صمت كان أخى ينصت خلالها بأذنيه كأنه يتسمع شيئاً ثم قال :

— يخيّل إلىّ أن هناك من ينادينا .

ثم طوى الصورة بعناية ونهض قائلا :

— لابد لنا أن نخفى الصورة وإلا رآها أبى . . أين تظننا نخفيها ؟

ولم يترك لى فرصة الإجابة بل أردف قائلا :

— سأخفيها فى حذائه .

ونظرت إليه فى دهشة وقلت له معترضاً :

— ولكن ....

ولكنه لم يدع لى فرصة الحديث إذ كان يستطيع التحدث أسرع منى ، وكانت كل محاولة فى مناقشته تذهب سدى ، لقد كان فى التاسعة وكنت فى السادسة ، واستمر يقول :

— ليس لدينا مكان آخر ، حذاؤه هو المكان الوحيد.

وتخيلت حذاء أبى . . ثم تخيلت أبى نفسه ، وأحسست برعب لمجرد التخيّل ، وهززت رأسى بشدة ولكنه قال :

— لاتكن أبله . فأنت تعلم أنه لايرتديه إلا فى المولد . أو عند مقابلة الحكام ، وكلاهما نادر .. سأعطيك الصورة لتتولى أنت إخفاءها فى الحذاء .

ولكنى هززت رأسى مرة أخرى . لقد كنت أكره أن ألقى بيدى إلى التهلكة ، وكنت أرى فى المسألة جرمين : أحدهما إدخال صورة كلاب فى الدار ، والثانى العبث بحذاء أبى . . فالعقاب مضمون . . لأن أبى لايرحم مذنباً ولا يغفر خطيئة . لقد كان رجلا ضخماً يطأطىء رأسه عندما ينفذ من أى باب ، وكانت أمى تقول عنه إنه طيب القلب ، ولكنى لم أك أصدقها لأنى مارأيته كذلك قط ، وكيف أراه طيباً وقد خصص لنا عصا

لتأديبنا إذا أخطأنا . . أو إذا خيّل له أننا أخطأنا .

وعندما عدت إلى الدار ، ذهبت إلى أبي وقلت له :

ـ نريد كلباً . . أنا وأخي .

ورفع إليّ رأسه في دهشة وقال :

ـ ماذا تريد أن تصنع به ؟

ولم أعرف بم أجيب ، ووقفت أمامه صامتاً . وأخيراً تكلم هو قائلا :

ـ لا فائدة في الكلاب . . إنها لا تؤكل ولا تشرب .

وعدت إلى أخي الذي وثب من فراشه وسألني متلهفاً :

ـ ماذا قال لك ؟

ـ لقد قال إنها لا تؤكل ولا تشرب .

وهنا دخلت أمي ، فقلت لهـــا إنني لا أحب أبي ، فوضعت أصبعها على فمها محذرة ، وقالت :

ـ إن الأطفال يجب أن يحبوا آباءهم .

ـ وهل كل الآباء في رداءة أبي ؟ !

ـ إنه ليس رديئاً ، هو فقط لا يفهم عقلية الأطفال . هيا إلى الفراش .

وغادرت الغرفة ، وسمعتها تتحدث إلى أبي بصوت لم أميز منه إلا بضع كلمات « إنهم أطفال ، ولابد لكي تفهمهم

أن تفكر بعقلهم » ، ولم أفهم معنى ماتقصد ، ولم أهتم بذلك كثيراً ، فقد كانت هناك أشياء كثيرة لاأستطيع فهمها .

واضطجعت على الفراش بجوار أخى ، وسمعته يقول كأنه يحدث نفسه :

ـ الكلاب لاتؤكل ولا تشرب ! ! والله لو أحضرنا كلباً ! لأكله وشرب دمه . . ! إنه رجل مخيف ! !

ومرت فترة طويلة دون أن أنام فقد كنت مستغرقاً فى التفكير ، وأخيراً سألت أخى :

ـ أتظنه يأكله كله ؟ بجلده ؟

وكان أخى قد أغفت عيناه ، فأجابنى وهو نصف نائم :

ـ يأكل ماذا ؟

ـ الكلب .

ـ لا . . لا أظنه حقيقة من آكلى الكلاب . نم . نم . دعك منه .

ومرت بضعة أيام بعد ذلك . . وفى ذات يوم عاد أخى من المدرسة فقذف بكتبه إلى المائدة ثم أشار إلىّ أن أتبعه ، ودلفنا سوياً إلى حجرتنا فهمس فى أذنى :

ـ أين أبى ؟

ـ لقد خرج .

— إلى أين ؟ ألا تعرف ؟

— إلى المقهى أو الجامع .

— إسمع . . لقد حصلت على شيء عجيب جداً . ماذا تظنه ؟ .

وهززت رأسي متسائلا ، فاقترب بغتة من أذني ثم همس قائلا :

— لقد حصلت على طفل .

— طفل ! ؟ طفل حقيقي ؟

— أجل . . أجل . . لقد وضعته في العشة على الشاطىء وسنتسلل الآن إلى هنالك .

— ولكن كيف حصلت عليه ؟

— لقد عثرت عليه .

— وهل هو ملكنا الآن ؟

— ملكي أنا ، ولكني سأعيرك إياه في غيبتي عنه .

وعدونا إلى « العشة » ، وهناك وجدنا الطفل يبكي فرفعه أخي بين ذراعيه ، ونظرت إليه وقد تملكني الإعجاب وقلت في دهشة :

— إنه طفل حقيق ! !

ثم وجهت الحديث إلى الطفل أسأله :

— كيف حالك ؟

ولكنه لم يجبنى بكلمة ، فقلت فى نفسى ربما كان أبله ، أو أصم لايسمع ، ولكن أختى أخبرتنى أنه لم يتعلم الكلام بعد ، وأنى كنت مثله فى يوم ما . . فلم أصدقه لأنى لاأذكر أننى كنت لاأستطيع الكلام يوماً .

وطلب منى أختى أن أجلس بجوار الطفل حتى يذهب إلى الدار فيسرق له قليلا من اللبن . كما طلب منى أن أغنى له إذا بكى ، فقلت له :

— هذا هين ، وسأغنى له حتى ولو لم يبك .

وذهب أختى ، وجلست إلى جوار الطفل وتبادلنا النظرات ، وسألته عن إسمه ولكنه لم يجب بكلمة ! ! وخطر لى أن أحمله بين ذراعى كما فعل أختى ، وحملته فعلا ، ولكننى سمعت وقع أقدام آتية من الخارج فوضعته جانباً وجلست بجواره ، وأحضر أختى اللبن فجرعه الطفل بنهم ، ثم طلب منى أن أعود إلى الدار حتى لاتقلق والدتنا .

وعدت إلى الدار فوجدتها جالسة ترتق بعض ثياب أبى فسألتها قائلا :

— عندما كنت طفلا . . أكنت حقاً لا أتكلم ؟

ونظرت إلىّ فى شىء من الدهشة وهزت رأسها بالإيجاب فعدت أسأل :

ـ تماماً كالقطط والكلاب ، وبقية الحيوانات ؟

فأجابت ضاحكة :

ـ أجل . . مثلها تماماً .

ـ ولكن الطفل خير من القطة ، ومن الكلب أيضاً .

وبعد فترة وجيزة أقبل أخى ، فتناولنا العشاء وذهبنا إلى الفراش ، وكان رأسى مشغولا بالطفل ، وبما أنوى أن أفعله معه ، وأى إسم سنطلقه عليه ، ولم يكد يستقر بنا المقام على الفراش حتى سألت أخى :

ـ بماذا نسميه ؟

فدفعنى أخى بيده قائلا :

ـ اخفض صوتك وإلا سمعونا .

فكررت السؤال فى صوت هامس ، ولكنه أعلى من الصوت الأول . فأجابنى بقوله :

ـ لم أفكر بعد . . هل تقترح شيئاً ؟

ـ « بوبى » .

ـ لاتكن غبياً . . إن هذا اسم كلب . . إنى أرى أن نسميه « عادل » .

ـ « عادل » إسم لا بأس به ، ولكنى أفضل إسم « بوبى » ! !

— قلت لك إن هذا إسم كلب . . فلا تكن عنيداً . . .
ثم لا تنس أن الطفل طفلي ، وأنى حر فى أن أسميه كما أشاء .
وسمعنا صوت أبي وأمي يذهبان إلى الفراش ، وأطفىء النور وساد السكون الدار ، فنهض أخي من الفراش وهمس فى أذني :

— سأذهب إلى الطفل لألفه بإحدى «الفوط» وأنومه .

— أتعرف كيف تنوّمه ؟

— أجل . . إنى أذكر ما كانت تفعله أمي معك قبل النوم ، عندما كنت فى مثل سنه .

وكان أخي يذكر عني كل شيء وأنا طفل . أما أنا فكنت لدهشتي لا أذكر عنه شيئاً ! . . لقد كان لاشك أكثر ذكاء ، وبعد هنيهة أبصرته يقفز من النافذة ، بعد أن أنبأني أنه سيعود قبيل الفجر .

وفى اليوم التالى كان أبي وأمي يظنان أن أخي قد ذهب إلى المدرسة كعادته . . ولم يعلما شيئاً عن بقائه طيلة اليوم فى الكوخ بجوار الطفل وكان متعباً ، بعد أن قضى الليل طوله على الأرض ، وقد أزعجه الطفل بكثرة بكائه ، إلى أن اضطر إلى السكوت والنوم ، وقد نال منه التعب والأعياء .

وقضينا يوماً لطيفاً مع الطفل ، وقد تبين لى أن له ثلاث

أسنان ، وبدا لى أنه يستطيع الوقوف ولكنه لا يرغب فى ذلك بدافع من الكسل والخمول .

ومضت الليلة التالية كسابقتها ، وفى الصباح أنبأنى أخى أن رأيه قد استقر على أن يحضر « سوسو » لكى تتولى أمر الطفل . . فهى ولا شك أقدر منا على تولى أمره والعناية به . . فهى امرأة والنساء أدرى من الرجال بهذه الأمور . . وهى على أية حال لابد أن تتدرب من الآن على ذلك . . ولا شك أنها ستسر كثيراً بالطفل . . فهو طفل « جاهز » لم تتعب فى حمله ولا وضعه .

وكان أخى كثيراً ما يحدثنى عن سوسو . . وهى ابنة جيراننا فى حوالى الثامنة ، وكان يخبرنى أنه ينتظر حتى يتخرج من المدرسة فيشترى طائرة ليطيرا سوياً إلى بلاد بعيدة . . وأنبأنى أنها لم تمانع فى الفكرة ، بل رحبت بها ، . وقد سألته إن كان ينوى أن يأخذنى معه فوعدنى خيراً .

وبقيت مع الطفل حتى ذهب أخى وأحضرها ، ووقفت تنظر إلى الطفل فى دهشة ثم أقبلت تربت عليه وحملته فى رفق متسائلة :

ـــ أهذا هو ابننا . . ؟ إنه جميل جداً . . إنه يشبهك كثيراً . . ما اسمه ؟

فقلت فى عجلة :

— بوبى ! ! .

فنظر إلىّ أخى شزراً ثم قال بلهجة تشبه كثيراً لهجة أبى :

— يا لك من حمار ! ! قلت لك إن هذا اسم كلب .

ثم التفت إليها قائلا :

— اسمه عادل .

وكانت سوسو فى تلك اللحظة تصلح للطفل ثيابه ، فنظرت إلينا نحن الإثنين شزراً وقالت بنفس لهجة أخى :

— يالكما من حمارين . . ! ! إنه بنت .

ثم أقبلنا على الطفل نتبينه فإذا به حقاً بنت .

ونظر إلىّ أخى قائلا بعد برهة :

— اذهب وأحضر اللبن .

فانطلقت أعدو إلى الدار ، وفى الطريق أبصرت جماعة من أهل البلدة بينهم « شيخ البلد » وقد ساروا كأنهم يبحثون عن شىء . . فلم آبه لهم وانطلقت فى طريقى ، وعندما وصلت إلى الدار وجدت أبى قد وقف بالباب وأمامه أحد مدرسى المدرسة وسمعته يقول له :

— أجل . . منذ يومين . . اليوم وأمس . . لم نر له وجهاً .

ونظر إلىّ أبى نظرة أوجست منها خيفة ، وسألنى :

ـــ أين أخوك ؟ .

ـــ على الشاطىء .

ـــ قل له أن يحضر .

وانطلقت إلى أخى أسوق إليه النبأ ، ورأيت الاصفرار قد علا وجهه ، ثم التفت إلى سوسو قائلا :

ـــ أبق مع الطفل حتى أعود .

وعندما التقينا بأبى أمسك بيد أخى وسحبه إلى مخزن الحبوب ، وبعد برهة عاد إلينا وحده وسألته أمى :

ـــ أين الولد ؟

ـــ لقد حبسته فى (الحاصل) . . إنه يأبى أن يقول أين كان فى خلال هذين اليومين ، وسيبقى هناك بلا طعام حتى يقول الحق .

وحاولت أمى أن تعترض ، ولكنه أسكتها بنظرة صارمة . .

وفى المساء تعشيت وذهبت وحدى إلى الفراش ، وقد شغلنى التفكير فى أخى وسوسو والطفل ، ولم أكد أحس أن أبى وأمى قد ذهبا إلى فراشهما حتى قمت إلى النافذة

وقفزت منها ، فسقطت على ركبتى وأحسست بالدماء تسيل من إحداهما .

وسرت أتلمس طريقى فى الظلمة الحالكة ، والخوف يتملكنى وخيل إلىّ أنى أبصر أشباحاً تتراقص أمامى ، ولكنى حاولت أن أهدىء نفسى ، ووصلت إلى (الحاصل) وصحت أنادى أخى فى صوت هامس مبحوح ، فأجابنى أخيراً ، وسألنى أن أذهب إلى الشاطىء لأرى ماذا فعلت سوسو بالطفل ، وحاولت أن أتقدم ، ولكنى رأيت شيئين يبرقان فى الظلمة لم أشك فى أنهما عينا عفريت مخيف وتسمرت قدماى فى الأرض وقلت لأخى إنى أبصر أمامى عفريتاً وسألته ماذا أفعل ، فأجابنى بأننى واهم ، ولكنى أكدت له أننى أبصره هناك واقفاً فى نهاية الطريق .

وصمت أخى برهة ، ثم طلب منى أن أعود إلى الدار وأخبر أمى .. ولكنى رأيت العفريت يقترب منى فصحت مستنجداً وأخذت أعدو أمامه وهو يتبعنى حتى وصلت إلى الشاطىء وهناك وجدت سوسو قد وضعت الطفل على ساقيها وأخذت تربت عليه وتغنى له . . ثم سألتنى عن أخى

فقلت لها إن أبي قد حبسه . . ولكني لم أكد أتم قولي حتى أبصرت أخي قد أقبل علينا يلهث فقد استطاع أن يقفز من نافذة (الحاصل) .

وفي نفس اللحظة سمعنا في الخارج وقع أقدام كثيرة وأصواتاً تتحدث ، ثم أبصرنا حشداً من الناس يقتحم « العشة » . . . واستطعت أن أميز على ضوء المصباح الذي حمله أحدهم أنهم أولئك الجمع الذين كانوا يبحثون عن شيء ، وكان معهم بعض رجال الشرطة .

وأمسك أحدهم بالطفل يحتضنه وساقونا أمامهم إلى العمدة ، وهناك وجدتهم قد تكأكأوا على أخي وخيل إليّ أنهم يتآمرون على إرساله إلى السجن ، وتسللت من بين الجمع وهممت بأن أعدو إلى الدار لأخبر أبي . . ولكني تذكرت العفريت . . فعدت إلى سوسو وهمست في أذنها بأن تذهب فتخبر أبي .

ورأيت الشرطي قد أمسك أخي فهجمت عليه وضربته بقبضة يدي ، وصحت في الجميع إن هذا الطفل هو طفلنا ، ولكنهم لم يحسوا بي واستمروا في نقاشهم وهرجهم .

وفجأة لمحت أبي بجسمه الطويل قد أقبل في الظلمة ،

وبجواره سوسو تعدو إلى جانبه ، وسرى بين الجميع الهمس ووقف الشرطى مكانه وبدا لى جلياً أن الجميع كانوا يخشون أبى تماماً كما نخشاه . . لقد كان رجلا مخيفاً .

وأقبلوا عليه يحيونه باحترام ثم سلموه أخى ، ورأيتنا نعود أدراجنا دون أن نأخذ الطفل فقلت لأبى :

ـ إننا لم نأخذ طفلنا . . إن أخى هو الذى وجده ، وهو إبنه ، هو وسوسو .

ولكنه جذبنى من يدى ودفعنى أمامه . . .

ولم نسر عدة خطوات . . حتى لمحت أمراً جللا ، واكتشفت شيئاً خطيراً .

لقد كان أبى يرتدى الحذاء ! !

وقرصت أخى . . . وأشرت إلى الحذاء . . فعلت وجهه علامات الذعر وبدا عليه كأنه ينوء تحت حمل ثقيل من المصائب ، وأنه قد أضحى فى حالة يأس .

ودخلنا إلى الدار وأقبلت أمى تحتضن أخى . . ولم ينبس أبى ببنت شفة ، ولكنى لم أشك فى أنه قد أعد لأخى عقاباً خطيراً . . فقد كانت الجرائم متعددة : غياب عن المدرسة ، وسرقة الطفلة ، وأخيراً صورة الكلاب التى لاشك فى أنه اكتشف وجودها فى الحذاء .

ودلفنا إلى حجرتنا فى سكون ، وربت على ذراع أخى وقلت له أهدىء من روعه :

ـ لاتخش شيئاً .

ـ إنى لاأخشى شيئاً . . لأنه لن يستطيع أن ينالنى بسوء . . . سأهرب من الدار ولن أعود أبداً . . فلست من الحمق حتى أنتظر لكى أموت من الضرب .

ـ إذن سأسافر معك .

ـ حسناً سوف ندبر أمرنا معاً .

ـ وسأطلب إلى أمى أن تفر معنا أيضاً .

ـ لا تكن أحمق . . . إياك أن تذكر لها شيئاً عن ذلك .

ـ ولكننا لانستطيع تركها وحدها .

ـ إذن ابق أنت .

وفى تلك اللحظة سمعت صوتاً عجيباً لم أعتد سماعه من قبل . . سمعت أبى يضحك ! !

وأرهفنا السمع مشدوهين ، ولكنه كان يضحك فعلا . . وسمعناه يقول لأمى :

ـ ألم ترى إبنة ابنك ؟ لقد أصبحت جدة . . أتذكرين عندما كنت طفلة . . وكنت تحملين الوسادة على كتفك

وتدعين أنك قد أنجبت طفلة . . وتطلبين منى أن أحضر لها اللبن ؟ لقد كان ابنك خيراً منا فقد سرق طفلة حقيقية وأعطاها لسوسو . . لقد أنجبا طفلة « جاهزة » . أتذكرين ذلك الزمن ؟

وسمعت أمى تجيب ضاحكة :

ـــ ليت الليالى التى أمضته ترجعه .

ثم سمعنا صوت قبلة . . وأردف أبى يقول .

ـــ لقد وجدت فى الحذاء هذه الصورة .

وهنا أحسست برجفة . . وخيّل إلى أنى أستطيع أن أسمع دقات قلبى ، وسمعت أبى يقول :

ـــ أخبريهما بأنى سأحضر لكل منهما كلباً ، على ألا يعبثا بالحذاء بعد ذلك .

وقفزت إلى أخى أحتضنه . . . وأخذنا نرقص فى الحجرة . . .

هنا أضع ألحاني .. هنا يهبط الوحي ..
وسط ذلك الصمت المحيم والسكون السائد ،
وبين أضواء الشموع الدائبة المرتجفة . .
هنا في هذه الأغوار السحيقة والدياجير
المعتمة التي تبدو كأنها أعماق الأبدية
اللانهائية .

obeikandl.com

منتدى الفنان

سيريالى . . .

لى صديق ومنذ أن سمعت بمبدأ السيريالزم . . وشاهدت بعض الرسوم السيريالية ، أيقنت من أن صاحبي هذا لابد مندفع إلى أحضان السيريالية ، متبوىء عرشها فى أقرب حين بلا شريك ولا منازع .

وصاحبى فنان أصيل .. فنان جوهراً ومظهراً ، أوهو صورة نموذجية لفنان لا أكاد أقارن به نفسى ، حتى أقتنع تماماً أنه ليس بى من سمات الفنان شيء ، وإنى مخلوق طبيعى مادى جامد بارد خلو من كل ما يميز عبيد الله الفنانين .

وأذكر ذات مرة ، أنى ذهبت لزيارة رجل كبير محترم من أهل العلم والعرفان ، وجلس الرجل يرحب بى مقدماً لى علبة سجائره قائلا :

— سيجارة ؟ !

— أشكرك جداً ، أنا لا أدخن .

— عجيبة ! إذاً أحضر لك قهوة ؟ !

— ولا أشرب قهوة .

— شاى إذاً ؟

— ولا أذوق الشاى .

وضحك الرجل وغمز بطرف عينيه وقال متخابثاً :

ـــ لو كان عندى كأساً من الويسكى لأتحفتك به ، لأنه يعز علىّ أن تزورنى ولا أقدم لك شيئاً .

ـــ أنا لا أذوق الخمر .

ـــ مدهش . . لا سجاير ، ولا قهوة ولا شاى ، ولا خمرة ، ولا حتى أى مكيف آخر ؟

ـــ أبداً .. أبداً ، إنى غير ذى « كيف » ، لا سجاير ، ولا خمر ولا ميسر ، ولا ، ولا .

ـــ ماشاء الله ، ماشاء الله . هكذا الاستقامة وإلا فلا . لابد إنك تصلى وتصوم .

ـــ أبداً ، أبداً .

ـــ لاتصلى ولاتصوم ؟

ـــ ولم أصلى وأنا لا أرتكب ما تنهى عنه الصلاة ؟ ومم أستغفر ربى ..وأنا ما أتيت ذنباً . . إنى مخلوق كافى خيرى شرى .. إنى منهى عن الفحشاء والمنكر . . « خلقة » .

وأغرق الرجل فى الضحك ، وظنها مزحة .

ولكنى فعلا كذلك ، لا سجاير ولا قهوة ولا شاى ولاخمر ولاحشيش ، ولاصلاة ولاصوم ولاشىء أبداً . . أبعد كل هذا أكون فناناً ؟

أما صاحبي . . فقد كان فناناً بمعنى الكلمة . . فهو فوق ارتكابه لسلسلة الأشياء المبينة عاليه ، من خمر ومكيفات وصوم وصلاة . . كان مخلوقاً ممتعاً فى الغرابة . . مفرطاً فى الشذوذ .

وكان صاحبي — ولم يزل بالطبع — موسيقاراً من أساطين الموسيقى ومن عمدها فى هذا الجيل ، وكنت قد سمعته وسمعت عنه كثيراً قبل أن ألقاه ، وكنت أميزه دائماً بغرابة موسيقاه وطرافة أساليبه ، فهو يكاد يكون بين الموسيقيين نسيجاً وحده .

وعندما لقيته أول مرة دعانى إلى زيارته فى « المعبد » .

وكان لقاؤه حاراً مليئاً بالحفاوة والترحيب ، إذ تفضل واعتبرنى فناناً ، رغم خلوى من كل مميزات الفنان ، وعندما سألنى زيارته فى المعبد ، لم يحاول أن يزودنى بأى توضيح عن هذا المعبد ، كأنما هو شىء كان لزاماً علىّ أن أعرفه . . أو كأن كل إنسان له معبد يزوره الناس فيه .

وخجلت من أن أستوضحه ، خشية أن يتهمنى بالجهل ، وخشية أن يعرف أنه ليس لى معبد ، لأنه لو كان لى معبد ، لما سألته عن معبده .

وتركتها تمر ، دون استفسار أو استيضاح . . معتقداً

أنها دعوة عابرة ، أو « عزومة مراكبية » ، وأنه من الخير ألا أكشف نفسى ، مادمت لن أذهب .

وانغمرنا فى الحديث ، منسجمين تمام الانسجام ، حتى حان وقت الانصراف ومددت يدى أودعه وأخبره بأنى سعيد بلقائه متشرف بمعرفته ، وإنى أتمنى أن أراه كثيراً .

وضغط على يدى بشدة ، وقال فى لهجة مصرة مؤكدة :

— أنا منتظر زيارتك للمعبد .

— إن شاء الله .

— اليوم الساعة الثامنة والنصف مساء .

ورأيت الدعوة جادة ، والعزومة مؤكدة ، فبدا على وجهى التردد . . وهممت بأن أعتذر . . ولكنه أردف مؤكداً :

— لن أقبل منك اعتذاراً ، لا بد من حضورك ، إنى أتوق إلى أن أجلس معك جلسة طويلة ، وستسرك الجلسة كثيراً . إنى واثق من ذلك ، فأنت فنان يلائمك جو المعبد الشاعرى الهادىء . . أنا فى انتظارك .

وكان هذا بمثابة أمر منه بالحضور ، ولم يكن هناك داع للتردد ، لاسيما وأنه كان إنساناً رقيقاً مهذباً حلو الحديث ، لطيف المعشر والمحضر . . وأنه لم يكن — فيما عدا مسألة

المعبد — يبدو عليه أى مظهر من مظاهر شذوذ الفنانين . . ولا سيما أيضاً أنه وفر علىّ حرج سؤاله عن المعبد بقوله من باب الإيضاح :

— لن تجد كثير صعوبة فى الاستدلال على المعبد فهو كائن فى شارع كذا رقم كذا .

ثم بدأ يشرح لى بالتفصيل كيفية الوصول إلى المعبد .

ولم أحاول — رغم جهلى بالمنطقة التى يقع فيها المعبد — أن أستزيده إيضاحاً فقد كرهت لنفسى أن يبلغ بها الجهل هذا الحد ، وأن أبقى على قيد الحياة فى القاهرة ثلاثة وثلاثين عاماً ، دون أن أعرف أن فى القاهرة معابد . . ولا أسعى لرؤية بعضها .

وفى الساعة الثامنة مساء بدأت السعى للمعبد . . وظللت أدلف من شارع إلى شارع . . وكان الحى مظلم مقفر ، يقع فى طرف من أطراف القاهرة المجاور للمقابر ، وأخيراً وصلت إلى الشارع المطلوب .. وبدأت التنقيب عن النمرة ، ولم أدقق كثيراً فى البحث عن النمرة . . إذ كنت أعتقد أن المعبد غرض شهير مميز . . وأنه لابد مسترعى التفاتى وسط غيره من البيوت العادية القائمة فى الشارع .

وقطعت الشارع ذهاباً وإياباً دون أن يلفت نظرى مبنى

غير عادى وسط البيوت القائمة فى الظلمة . . لا مآذن ، ولا قباب ، ولا أى هيكل ينم عن المعبد .

وهكذا لم أر بداً من التدقيق فى البحث عن الرقم المطلوب . . وسرت أقرأ أرقام الدور واحداً واحداً . . حتى وقفت أخيراً أمام الرقم المقصود .

عجباً ! إنه بيت عادى كغيره من بيوت الشارع .

لا بد أن يكون هناك خطأ أو لبس ، إذ ليس على البيت أى سمة من سمات المعابد ، ووقفت لحظة متردداً أمام البيت وكان بيتاً عادياً مكوناً من بدروم ودورين وتحيطه حديقة صغيرة وسور حديدى .

ومددت يدى إلى الجرس وضغطت عليه وقلت لنفسى :

— إسأل . .

وسمعت صوتاً يصيح من البدروم :

— مين ؟

وهنا وضحت المسألة ولم يعد هناك معنى للتردد ، فقد كان الصوت صوت صاحبى الفنان ، ولم أحاول السؤال بالطبع بل دفعت الباب الحديدى ودخلت أتلمس طريقى فى ظلمات الحديقة إلى باب البدروم .

وسقط على الضوء الخافت الخارج من الباب ، فاستطاع

صاحبي أن يميزني واندفع في سيل من الترحيب الحار قائلا :

ـ أهلا .. أهلا .. يا مرحباً .. تفضل نوّرت المعبد .

وتفضلت .. ولكني قطعاً لم أنير المعبد ، فقد استمرت الظلمة الجاثمة في أرجائه والتي لم تفلح في إضاءتها ذبالة الشموع الخافتة .. جاثمة كما هي .. لم تتأثر قط بدخولي .

وتلفت حولي أتفحص المعبد . . فوجدته بدروم عادي مقفر خرب .. مظلم رطب . لا يفترق عن أي بدروم آخر . إلا في أن صاحبنا الفنان زاد من مظاهر الفقر والخراب ، وأمعن في إبرازها فاصطنع من أعمال الديكور والزخرف شقوق ظاهرة في الجدران وتهديم في الأركان . . وإسقاط للبياض في الأسقف وهضاب ووهاد في الأرض . . وبين مظاهر الخراب والبؤس هذه وضع أثاث المعبد وهو بيانو في أحد الأركان ، وعود معلق في ركن آخر . . ومقاعد ووسائد وأرائك متفرقة هنا وهناك .

وطاف بي صاحبي في أرجاء المعبد . . طواف معجب متفاخر .. ثم استقر بنا المقام في إحدى الحجرات الرطبة العفنة المظلمة .

ومرة أخرى كرهت نفسي . . فقد أحسست أني غير فنان . . أو فنان غير أصيل . . إذ لم يصادف المعبد هوى

فى نفسى ولم أشعر وأنا جالس وسط هذا الخراب والرطوبة والظلمة بارتياح وانسجام .. ومع ذلك فلم أكن أملك إلا أن أوافق صاحبي على إعجابه وطربه . . فإن خجلى يدفعنى دائماً إلى أن أكون منافقاً كبيراً .

قال صاحبي :

— هنا أضع ألحانى .. هنا يهبط الوحى . . وسط ذلك الصمت المخيم والسكون السائد وبين أضواء الشموع الذائبة المرتجفة .. هنا فى هذه الأغوار السحيقة والدياجير المعتمة ، التى تبدو كأنها أعماق الأبدية اللانهائية . . هنا فى هذا المعبد الملىء بالسحر والطلاسم .

وهززت رأسى وقلت موافقاً وأنا أزج فى قولى ببعض مترادفات الأبدية واللانهائية والدياجير :

— أجل ! أجل ! إن سحره عجيب . . إنه يبدو كأنه كهف الأقدار يمتد من بطون الماضى إلى وهاد الأبد .

وطال بنـــا الحديث فى كهف الأقدار بين الأغوار والدياجير والماضى والأبد . . حتى حان وقت انصرافى فودعته وانصرفت .

تلك كانت المرة الأولى لزيارته ، وطالت بنا الفرقة حتى التقيت به أنا وصديق لى ذات مرة فى إحدى المحلات العامة

فأصر على أن أزوره فى تلك الليلة أنا وصاحبى .

ورحبت بالدعوة فقد كان ـ كما سبق لى القول ـ إنساناً لطيفاً .. وكانت جلسته محببة إلى نفسى .. وكان صديقى هذا يتوق إلى رؤية المعبد بعدما حدثته عنه .

وقصدت إلى الدار .. ولم يطل بى البحث عنها هذه المرة وسرعان ما وقفت وصاحبى أمام الباب الحديدى أدق الجرس .

ولم يجبنى الصوت من البدروم هذه المرة ، فقد كان معتما لا يبدو به بصيص ضوء ، بل أجابنى صوت الفنان من إحدى نوافذ السلاملك وهتف بى مرحباً :

ـ أهلا وسهلا . . تفضل .

وانتظرت أن يهبط من السلاملك ليقودنى إلى المعبد ، واتخذت طريقى إلى بابه ، ولكنه نادانى بصوته الجهورى :

ـ إطلع هنا . . إن المعبد به بعض التصليح ولا يصلح لاستقبال الزائرين .. تفضل .

وسحبت صديقى من يده وسرنا نتلمس طريقنا وسط الظلمة إلى باب البيت ، وقبل أن نصل إلى الباب أضىء نور السلم وبدا على ضوئه مدخل البيت أنيقاً نظيفاً ليس به شىء من قفر المعبد وخرابه .

ودلفنا من الباب إلى الفناء الداخلى . . فوجدنا السلم

الرخامى يتوسطه وقد بدا نظيفاً لامعاً . . وبدت الجدران مطلية بالزيت ومحلاة بالنقوش . . والمدخل كله ينم عن الروعة والفخامة والنظافة . . إلا من شيء واحد أثار دهشى وبدا نشازاً فى المدخل الفخم . . وذهب بكل ما به من نظافة وأناقة .

فى باطن السلم ، أو ما يسمونه « بير السلم » وجدنا كوم من الحجارة والزلط والأتربة والردش كأنها بقايا جدار مهدوم أو آثار عمارة . . وفى وسط الكوم المترب ووراء جدار السلم قام جذع شجرة جاف «مقلحف» ملىء بالفروع اليابسة والبراعم المنكمشة .

ونظر إلىّ صاحبى وهز رأسه أسفاً وقال :

— أنظر إلى الخدم والبوابين ، ماذا كان يضيره لو رفع هذه القاذورات وألقى بهذا الحطب فى الحديقة . . بدل أن يتركه هكذا مشوهاً مدخل البيت .

وقلت موافقاً :

— منتهى الإهمال .

وصعدنا الدرج وأنا آسف على إهمال البواب وقذارته وإن كان أسفى يشوبه شيء من الحيرة المستترة والشك الخفى .

ولقانا صاحبى الفنان أمام باب الشقة مهللا مرحباً . .

وأخذنا بالحضن ، ثم قادنا إلى داخل الشقة ، وهممت بأن ألفت نظره إلى القاذورات التى كومها البواب فى بير السلم ، لولا ذلك الشك وتلك الحيرة اللذان كنت أشعر بهما .

أجل ! لقد كان يساورنى شك . . ضعيف جداً وبعيد الاحتمال جداً ، إلى درجة أننى لم أجرؤ على التصريح به . . ولكنه مع ذلك كان يساورنى .

هذا الشك هو احتمال أن يكون هذا الكوم والحطب موضوع عن قصد وبفعل فاعل . . وأن يكون الفاعل هو صاحبي الفنان نفسه .

ولهذا السبب لم أجسر على إبداء أية ملحوظة عنها . . ولا أن أصرح بأى رأى فيها خشية أن أبدو جاهلا وأن أسبب للفنان خيبة وفجيعة .

أى خيبة أمل كان يشعر بها صاحبي الفنان ، لو أنه قد وضعها بقصد معين وخطة مرسومة ، وقلت له عنها إنها قاذورات ومخلفات تركها البواب ؟!

ولذلك آثرت الصمت ، وفضلت أن أتجاوز عن كوم الأتربة والشجرة الجافة وألا أبدى بشأنهما أى سؤال رغم أنهما كان يشغلان حيزاً كبيراً من تفكيرى ، ورغم أنى كنت تواقاً إلى استطلاع حقيقة أمرهما ، حتى لا أفضح نفسى ،

وأخجل صاحبي .

وجلسنا في صالة أثثت على الطراز العربي ، منخفضة الأرائك .. مزركشة بالصدف ، تناثرت فيها آلات الطرب والموسيقى .

وصفق مضيفي بيديه صائحاً :

ـ أم عبده .

وأتت أم عبده ، ترفل في ثوب فضفاض أسود فأمرها بتجهيز القهوة .

ولم تكد تختفي « أم عبده » حتى قفز من مقعده قائلا :

ـ ستحضر لك أم عبده قهوة من اليمن .. بن يمني أصلي وسأحضر لكم أنا شيئاً من زحله .. زبيب زحلاوي على كيفكم .

وحضرت القهوة مع « أم عبده » وتوسكا ، وهي كلبة كبيرة في حجم أم عبده ، ثم أحضر هو الزبيب .

ولم يكد يستقر به المقام حتى قفز مرة ثانية قائلا :

ـ سأحضر لكم شيئاً من اليونان .

ثم أحضر لنا بعض قطع من البطارخ .

وبدأنا السهرة .. وطال بنا الحديث .. وكوم الأتربة والشجرة الجافة ما زالت تساور ذهني .. وتدس بنفسها

فى تفكيرى . . والسؤال عنها يتراقص على شفتىّ . . ويهم بالانطلاق .

وفجأة وبلا سابق إنذار . . رأيت صديقى الفنان يميل علىّ ويسأل فى لهجة مليئة بالفخر والكبرياء ، وهو يشير بإبهامه إلى ناحية السلم :

ـ أرأيتها ؟

واستطعت من منظره وإشارته وطريقة سؤاله أن أدرك جلية الأمر بوضوح ، وأن أفهم أن تشويه منظر المدخل بالأتربة والحطب من فعل صاحبى الفنان نفسه وليس من إهمال البواب ، وأنها قد أصبحت بناء على ذلك مسألة تستحق التقريظ .

وأجبته بحماس شديد وأنا أميل عليه كما مال علىّ :

ـ رأيتها .

ـ وما رأيك ؟

ـ بديعة . . آية فى الإبداع .

وكان صاحبى الآخر يتبع المناقشة وقد بدا عليه الذهول ، غير دارٍ ما هى هذه التى رأيتها آية فى الإبداع .

وبدأ الفنان تفسيره قائلا وهو يهز رأسه من فرط الإعجاب :

— إنها قطعة خالدة من السيريالية . إنها شجرة الفناء . الفناء اللانهائى السحيق ، أرأيت الأرضية التى فى أسفلها . إنها تمثل القفر والخراب ، وترمز إلى التراب الذى يختلط بالرميم ، ومن وسط هذا نبت الجفاف والذبول ، قائم كأنه العظام النخرة . إنه تابلوه رائع ، كل شىء فيه موضوع لحكمة ولغرض ، كل فرع جاف يرمز إلى شكل من أشكال الفناء . لو تأملت فيها ملياً لأبصرت العجب . أرأيت هذه الزلطة الموجودة فى الركن أسفل السلة السابعة . إنها ترمز إلى الجماجم الخاوية ، التى كانت كالزلط . أما الحجرة المقلوبة على جانبها فهى تمثل القلوب التى كانت كالحجر . أما الشجرة نفسها فهى تحتاج إلى دراسة طويلة . إنها ليست شجرة عادية كما قد يبدو لك . لقد ظللت أبحث عنها مدة طويلة حتى وجدتها أخيراً ملقاة على قارعة الطريق بعد أن اصطدمت بها سيارة مسرعة .

وقضينا الجلسة كلها نتحدث عن شجرة الفناء . وأنى أحمد الله الذى منّ علىّ بالستر فلم أشك له إهمال البواب وتركه القاذورات والحطب فى بئر السلم . وأخيراً نهضنا للانصراف وهو يقول :

— إنى أنوى أن أقدمها للعرض فى أول معرض

للسيريالزم .. وإنى أقدر لها ثمناً يزيد على الألف جنيه . فلا أظن هناك لوحة يمكن أن تمثل الفناء كما تمثله هى .

وخرجنا من الشقة وبدأنا نهبط السلم وقد وقف هو يودعنا على بسطة السلم .

وفجأة رأيته يفغر فمه ويحملق بعينيه فى بئر السلم ويبدو عليه فزع شديد .

وذهلت ، ولم أملك إلا أن أنظر إلى حيث أخذ يحملق بعينيه ، أعنى فى بئر السلم حيث وضعت شجرة الفناء . فإذا بى أرى المكان نظيفاً أنيقا لا أثر فيه للأتربة ولا للحطب الجاف ، وإذا بمدخل الدار قد عاد إليه رونقه وزالت عنه الغمة .

ولكن صاحبى لم يكن يرى هذا الرأى ، بل كان يعتبر المسألة فاجعة وصاح بأعلى صوت :

ـــ الشجرة ، أين الشجرة ؟ لقد سطوا عليها اللصوص ، ياعم على ، يا عم على .

وهبطنا نحن الثلاثة بسرعة نبحث عن عم على البواب ، فإذا بنا نجده قد افترش الأرض على باب حجرته ، ووضع أمامه منقداً مشتعلا وأخذ يلقى فيه بين آونة وأخرى بقطعة من الحطب ، وعلى مقربة منه كانت تجثم أشلاء الشجرة وقد حطمها الرجل ليتدفأ بحطبها .

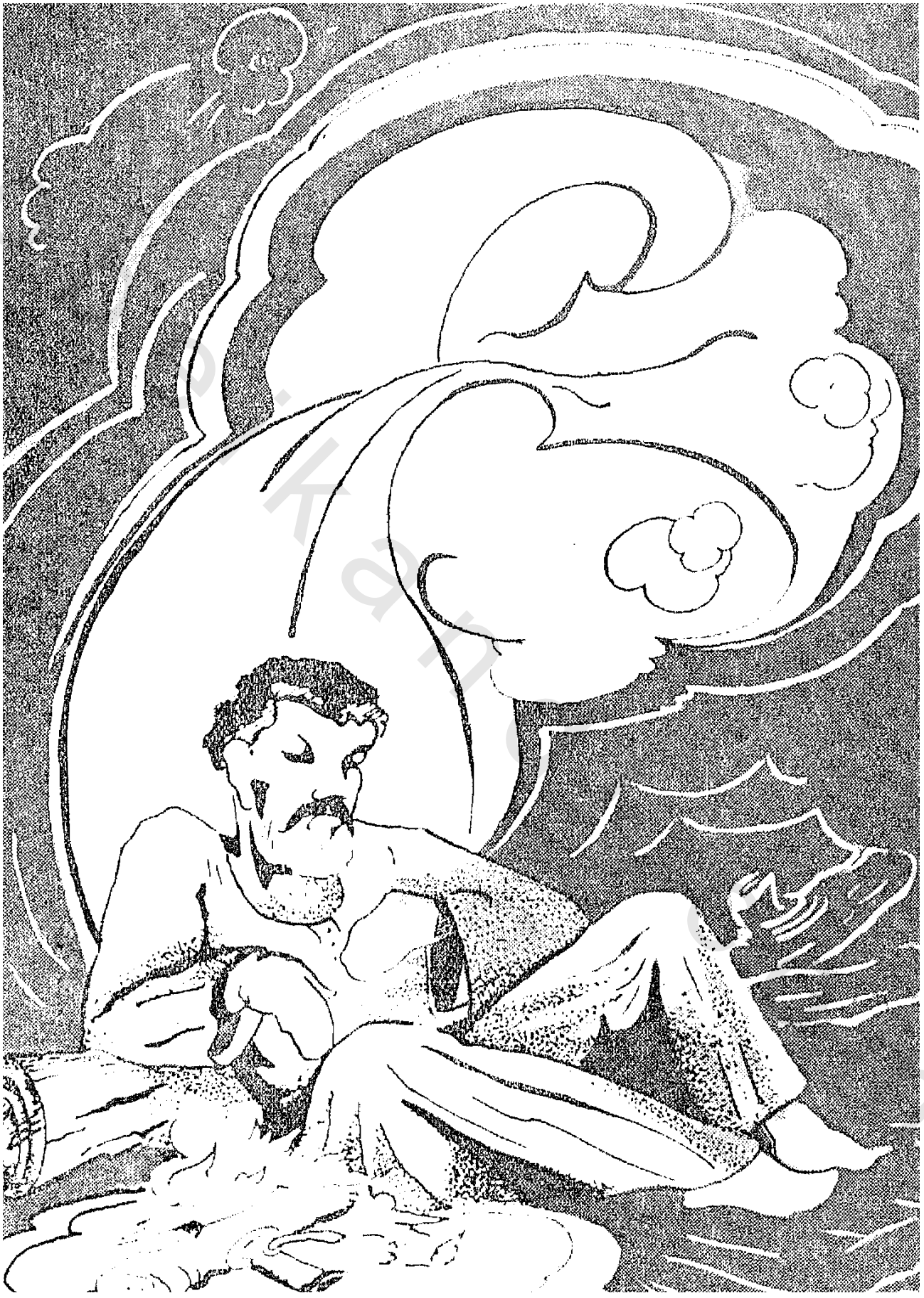

وهجم صاحبي على « عم على » يمسك برقبته ويصيح :

ـــ أيها الجاهل الأحمق ماذا فعلت بشجرة الفناء ؟

ـــ شجرة إيه ؟

ـــ الفناء . . . الفناء .

ووجدت البواب يوشك أن يختنق تحت ضغط يد الفنان ، فأسرعت أخلص البواب منه خشية أن يرتكب جريمة قتل ، وقلت له :

ـــ يا أستاذ لاداعي لكل هذه الثورة ، إن « عم على » كان يقصد معاونتك .

ـــ معاونتى أنا . كيف ؟

ـــ ألم تكن هذه شجرة الفناء ؟

وأشرت إلى كوم الحطب المجهز للوقود . وأجاب الفنان :

ـــ أجل ، لقد كانت كذلك .

ـــ فعلام الغضب إذاً ، لقد جعلها عم على ، منتهى الفناء . لقد أضحت فناء الفناء .

ونظر صاحبي إلى النيران وإلى كوم الحطب ثم هز رأسه موافقاً وأجاب :

ـــ معك حق ، هيا بنا ، برافو « عم على » ، أنت شيخ السيرياليين .

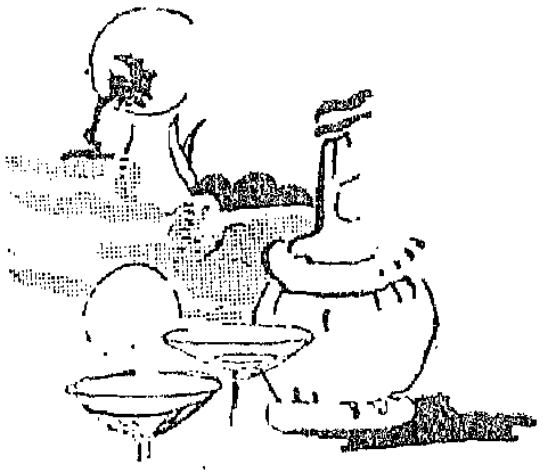

ومرت بضعة أيام ونحن فى حيرة لا ندري
كيف رضيت أن تتنازل عن قميصها بمثل
هذه البساطة حتى كان ذات يوم ، وضح
لنا الأمر ، وعلمنا أنها لم تترك زوجها
العاشر الا بعد أن حصلت على « الزوج
الحادى عشر » ..

الزوج الحادى عشر

شاطىء البحر . . فى صيف العام الماضى . . .

على أبصرت « ابتسام » ، ولاشك أن الإسم قد وقع لدى القارىء موقعاً حسناً . . وأنه يتوقع بعد ذلك أن أصف له هيفاء من فاتنات الصيف . . بمايوه من قطعتين ، برز منها الصدر ، والتف الخصر ، واستقام الساقان .

لا ياسيدى . . آسف كثيراً ، وما ذنبى وهى ليست كذلك ، ولاربع ذلك .

أقول إنى رأيتها على الشاطىء . . لاتتهادى ، ولاتتمايل بل تسير كالهجين . . تدفع بجسدها الضخم المترهل إلى الأمام وإلى الخلف وتدب بقدميها على الأرض دباً وقد أمسكت حقيبتها بيدها . . حقيبة جلدية من الحقائب التى يحمل الطلبة فيها كتبهم ولكنها ضخمة بحيث تتسع لما تحمله من البضائع .

البضائع ؟ .

أجل . . الحلقان والأساور والروائح والخواتم التى تبيعها ببضعة قروش لأصحاب الكبائن ، فتكتسب منها رزقها .

لاترع ياسيدى القارىء . . فلقد روعت من قبلك . . عندما سمعت اسمها ثم رأيتها . . بشكلها ومشيتها وحقيبتها .

رأيتها سمراء صفراء كالحة باهتة (واخشيتاه من أن تقرأ القصة) مجعدة الوجه ، واسعة الفم ، مخيفة النظرات ، ذات صوت عال مخشوشن ، ولهجة آمرة غير مستجدية .

دخلت علينا الكابينة ذات مرة . . أو قل هجمت ، ورأيت الأهل يعاملونها برفق ورقة وأدب وابتاعوا منها أشياء لم يكونوا قط فى حاجة إليها . . فلما انصرفت سألتهم لِمَ اشتروا منها مااشتروا ولِمَ عاملوها بمثل ماعاملوها به . . فأجابوا أنهم يخشونها لأنها طويلة اللسان ، وأنها لاتتورع عن شتيمة من يرفض الشراء منها فإن بها لوثة ! ومن ذلك اليوم وأنا أخافها وأخشى الاقتراب منها ، وتحدثوا عنها فقالوا إنها امرأة ذات ماض عجيب ، فقد تزوجت مايقرب من العشرين رجلا كان منهم قبطان سفينة وكابتن انجليزى سافرت معه إلى انجلترا ! !

وزارتنا المرأة مرة ثانية . . أو أغارت علينا . . وانسجمت معنا بعض الشىء ، فجلست تقص علينا طرفاً من مغامراتها وزيجاتها . . ثم أنبأتنا فى النهاية أنها مخطوبة .

وكتمت الضحك فى صدرى خشية أن ينالنى منها شر ولم أشك فى أنها مجنونة وأن كل ما تصفه لايعدو حديث خرافة . . حتى سمعت بعد ذلك طرفاً من تاريخها . .

من صاحب لا أرتاب فى صدقه ، فلم أشك بعد ذلك فى أن المرأة لم تكن كاذبة فى شىء مما قصته .

كنت أجلس وصاحبى فى أصيل يوم من أيام الصيف أمام حوض السباحة بنادى هليوبوليس ، ولست أدرى كيف ساقنا الحديث إلى ذكر صاحب لنا فأخذنا نتندر بفرط هدوئه وبأنه ليس هناك مايمكن أن يستثيره أو يحرك ساكنه .

وصاحبنا هذا يدعى « أحمد افندى » . . وهو رجل فى منتصف العمر . . مقبول الشكل ، ممتلىء الجسم ، أصلع الرأس ، ولست أظن هناك فائدة فى كل ماذكرت من الأوصاف فهى لايمكن أن تكون مميزة لشخص بذاته وتكاد تنطبق على نصف سكان مصر وكل موظفى الدواوين .

أما الشىء الذى قد يمكن أن يكون من مميزاته فهو ذلك الهدوء والسكون والطيبة والقناعة .

ورأيت صاحبى قد ضحك فجأة فسألته عما يضحكه فأجاب بأنه قد تذكر واقعة عجيبة وقعت لصاحبنا منذ عشرات السنين . . واقعة لولم يشاهد وقوعها بعينى رأسه ، ولو لم يطلع على حوادثها من أولها إلى آخرها . . لقال عنها فرية وأكذوبة .

وبدأ صاحبي يقص عليّ الواقعة . . قال :

ـــ كنا نعمل معاً فى مكتب البريد العام ، وكنا نجلس متجاورين كل خلف نافذته التى يستعرض من خلالهـــا مختلف الوجوه التى تفد علينا طيلة اليوم ، وفى ذات صباح لمحت من نافذتى غادة مقبلة . . غادة فى جسدها الممتلىء وصدرها البارز إغراء ، وفى تقاطيع وجهها وسواد عينيها سحر وفتنة ، وتطاولت ببصرى كما تطاول غيرى من الموظفين الذين لمحوها من خلال نوافذهم وكأننا لم نبصر من قبل امرأة جميلة . . إلا واحداً لم يحرك ساكناً ولم يكلف نفسه حتى مشقة رفع بصره ، وكان هو « أحمد افندى » . ووقفت الغادة أمام « أحمد افندى » تحييه بابتسامة تذيب الحديد ! ! ونظر هو إليها ببروده وجموده وسألها عما تطلب .

ولا تسل عن الحسد الذى أحسسنا به نحو أحمد افندى عندما سمعنا الغادة تسأله برقة هل هو أحمد افندى ، وعندما تبينا أنها تقصده شخصياً ، وأن وقوفها أمامه لم يكن وليد صدفة . . .

وطال الحديث بينها وبينه . حديث ناعم رقيق . تتخلله البسمات والضحكات ، وأخيراً انصرفت مودعة ، وأقبلت على صاحبنا أسأله من تكون الفاتنة وماقصتها ، فتبين لى

أنها التقت بأبيه فى بلدته وتوثقت بينهما عرى الصداقة وأنه أنبأها أن ابنه يعمل فى البريد وأعطاها عنوانه فلم تكد تصل إلى القاهرة حتى أتت لزيارته .

وأقول لك الحق أننى رأيت الفتاة « لقطة » و (استخسرتها فيه) ، ولكن ماذا كنت أستطيع أن أفعل مادام « يعطى الحلق للى بلا ودان » ويأليته بلاأذن فقط . . بل بزوجة ، وثلاثة أولاد ، وهو فوق ذلك زوج مخلص وفىّ .

ومرت الأيام ، وهى تتردد عليه من يوم لآخر . . لاتكاد تحل بالمكتب حتى يتضوع عبيرها فى أنوفنا . . وترن ضحكاتها فى آذاننا ، وتسرى منها رائحة طيبة تملؤنا طرباً وحبوراً ، وأخذت معاملة أحمد افندى لها تتطور مع الأيام . . فتبدل جموده رقة ، وخشونته ليناً ، وذهب عنه ذلك البرود والركود . . فهش وبش ، وتلطف وتظرف ، وأخذ إقباله عليها يزيد المرة بعد المرة . . بل لقد خيّل إلىّ أن الرجل بدأ يتعلق بها فينتظر مجيئها فى كل يوم بشوق ولهفة .

أقول إن هذا هو ماخيّل إلىّ . . حتى حدث ذات يوم حادث ملأنى دهشة . . حادث حاولت أن أجد له تفسيراً وتعليلا ولكن عبثاً .

كنا جالسين فى المكتب ذات مرة وقد انهمكنا فى العمل وجلس بجوارى أحمد افندى يبادلنى من آن لآخر كلمة أو سؤالا ، وقد بدا فى أتم هدوئه ورزانته وعقله ، وقوراً حكيما . . لايتوقع منه المرء هزلا ولامجوناً ، ولاعبثاً ، ولامزاحاً .

ترى ماذا تقول فى هذا الوقور الحكيم . . عندما تراه قد هبط فجأة عن كرسيه فاختفى أسفله وقبع فيه كهر يموء أو طفل يحبو ؟

هل جن ؟ ! أو يأتى الجنون هكذا فجأة دون مقدمات أو مبررات ؟

لقد نظر إلىّ الرجل من أسفل المقعد وقد بدا على وجهه ذعر شديد وسمعته يهمس :

ــ قل لها إننى غير موجود .

أقول لمن ؟ . ماذا أصاب المسكين وماذا دهاه ؟

لقد أصابتنى دهشة شديدة جعلتنى فى حالة عجز عن التفكير . . فقد حدث ماحدث فى مثل لمح البصر . . ولم أكد أرفع عينى عن الرجل القابع عند قدمى ، حتى أبصرت الحسناء تقف أمامى فى النافذة تمنحنى ابتسامة من ابتساماتها العذبة وتسألنى فى صوت رقيق :

ــ أحمد افندى موجود ؟

فأجبتها بسرعة دون تفكير :

ـ لا يافندم . . غير موجود ؟

وحيتنى بابتسامة أخرى وأعطتنى ظهرها وانصرفت .

ونظرت إلى الرجل المنكمش أسفل المقعد فوجدته ينظر إلىّ ويهز رأسه متسائلا ، فأجبته :

ـ لقد انصرفت .

وتنفس أحمد الصعداء وخرج من مكمنه وانطرح على كرسيه وقد تصبب العرق من جبينه وحاولت أن أستوضحه الأمر وأعرف منه سر ذلك الجزع والفزع من رؤية الحسناء وسبب تهربه منها كأنه مجرم تطارده الشرطة ، ولكنه تذرع بالصمت وطلب إلىّ أن أنبئها فى كل مرة تحضر للسؤال عنه بأنه غير موجود .

ومرت الأيام والغادة لا تنقطع عن المجىء إلى المكتب والسؤال عنه ، ولا يكاد يحس هو طرقات أقدامها حتى يبدو عليه كأنما سمع إنذاراً بالخطر فيهبط إلى مخبئه فى لمح البصر حتى إعلان الأمان فيظهر على وجه الأرض ، واستمر الحال على هذا المنوال حتى وقفت الغادة أمامى ذات يوم تسألنى عنه كالمعتاد . . فأجبتها بنفس الجواب الذى عودتها عليه « غير موجود » ، ولكنها فى هذه المرة لم تجب بابتسامتها

المعهودة ، ولم تنصرف ، بل هزت رأسها ببطء وقلبت شفتيها بازدراء وقالت فى صوت هادىء :

ـ أنا أعلم إنه موجود . . قل له لا فائدة من التهرب ، سأعثر عليه إن عاجلا أو آجلا .

ـ هرب ؟ ولِمَ يهرب ؟ وماذا تريدين ؟

ـ ماذا أريد منه ؟ . . إنى زوجته !

إن إجابة المرأة كانت آخر ما كنت أنتظر ، ونظرت إليها مشدوهاً وقلت فى ذهول :

ـ زوجته . . أنت ؟ . . ولكنه متزوج وله ثلاثة أولاد . . .

ونظرت إلىّ المرأة نظرتها إلى إبله ، وهزت كتفيها باستخفاف ، ثم أخرجت من حقيبتها ورقة لوحت لى بها وقالت : هذه ورقة الزواج وعندى ورقة أخرى تنازل لى فيها عن أطيانه . . أرجوك قل له لا فائدة . . قل له يكف عن « الزوغان » ويظهر بالتى هى أحسن ، وإلا . . . .

ودون أن تنتظر منى رداً أولتنى ظهرها وانصرفت .

وخرج أحمد افندى من مخبئه كأنه فأر غريق وسألته :

ـ أتزوجتها حقيقة ؟

وهز رأسه بالإيجاب .

— وكتبت لها الأطيان ؟

وهز رأسه بالإيجاب أيضاً .

أنبأني باختصار أنه ذهب إليها في « العوامة » ذات ليلة وأنها أسكرته وعقدت زواجهما واستكتبته تنازلا عن كل مايملك . . .

وتملكني العطف عليه والرثاء له . . فلقد كانت ورطته ليست مما يسهل الخروج منها ، وخاصة أن المرأة ليست لينة العريكة ، فقد علم أنها تزوجت من قبل تسع مرات ، وكان من أزواجها قبطان سفينة وكابتن انجليزي .

وهنا صحت :

— قبطان سفينة وكابتن انجليزي ؟ ما إسمها ؟

— ابتسام ؟

— ابتسام ؟ لايمكن . . ! إنها تكون حقاً قد تزوجت هؤلاء ولكنها قطعاً لم تكن حسناء ولاغادة ولا شيئاً من هذا الذي تقوله .

— هل تعرفها ؟

— رأيتها في الصيف الماضي شوهاء شنعاء . ليست بها مسحة من ذلك الجمـــال الذي تتحدث عنه ، ولكن أتمم حديثك . . فلا شك أن الزمن والأزواج العشرة قد فعلوا بها مافعلوا .

وأخذ صاحبي يتم حديثه قال :

ـ قلت لك أنى أحسست نحو صاحبي بعطف شديد وأخذت أفكر وإياه فى الوسيلة التى نستطيع بها أن ننقذه من ورطته ، وتطوعت أنا لمساومة المرأة للتنازل عن حقوقها .

وفى اليوم التالى حضرت كعادتها ولم يهبط أحمد افندى بل جلس ليواجهها ، وسألتها عما تريد ثمناً للطلاق وللورقة التى معها فأنبأتنى بإصرار أنها لا تريد الطلاق .

ولم تجد مع المرأة طرق اللين والسياسة ، فقد كان أحمد افندى فى نظرها «لقطة» ثمينة ، وأخيراً نفد صبرى فصحت بها أن تذهب إلى حيث ألقت .

ورمقتنى بنظرة طويلة ملؤها التهديد والسخرية ، ثم هزت رأسها ببطء وانصرفت .

وظللت أرقب المرأة وهى تسير إلى الخارج وأنا موجس من نظرتها خيفة . ولم تمض لحظة حتى أبصرتها تتجه يمنة ثم ترتقى السلم صاعدة إلى مكتب المدير .

وأحسست بقلبي يهبط بين جوانحى . . فقد كنا لا نخشى أحداً فى ذلك الوقت كما نخشى المدير . إذ كان رجلا جاداً ، قاسياً ، وكرهت أن يكون هو أول من يعرف بالفضيحة

ولم أشك فى أنه سيتخذ مع أحمد افندى إجراء حاسماً رادعاً.

ولم تمض لحظة حتى أقبل حاجبه يطلب أحمد افندى فصعد معه ، أصفر الوجه ، مرتعد الأوصال ، وبعد هنيهة أقبل مرة أخرى يطلبنى .. ودخلت لمقابلة المدير وعلمت منه أن أحمد افندى أنكر كل علاقة له بالمرأة ، وسألنى عما أعرفه ، ولم أستحسن أنا فكرة الإنكار فرويت له الحقيقة ، وقلت له إنها زلة شباب وإننا نأمل أن يتصرف فى المسألة بعطفه الأبوى .

وانصرفنا من أمام المدير تاركين المرأة عنده ، وقد ملأنا الخوف والقلق .

وفى اليوم التالى حضرت المرأة ، وأقبلت علينا كأنها غمة أو سحابة ، ووقفت أمامنا برهة تحدق فينا بنظراتها ثم حدثت المعجزة .

لقد مدت يدها إلى أحمد افندى بالورقة التى تنازل لها فيها عن أملاكه ، وطلبت منه الطلاق . . بلاقيد ولاشرط .

لم تصدق أعيننا بادىء الأمر ، وظننا المرأة تمزح ، ولكنها كانت جادة فى قولها .

أية معجزة تلك التى استطاع المدير صنعها . . كيف

استطاع أن يؤثر عليها . . بالضرب . . بالتهديد . . باللين . . بالسياسة . . من يدرى ؟ !

ومرت بضعة أيام ونحن فى حيرة لا ندرى كيف رضيت أن تتنازل عن قنيصتها أحمد افندى بمثل هذه البساطة ، حتى كان ذات يوم ، وضح لنا الأمر ، وعلمنا ببساطة أنها لم تترك زوجها العاشر أحمد افندى إلا بعد أن حصلت على « الزوج الحادى عشر » . أتدرى من كان ؟ ! . . لقد كان المدير نفسه بجده وقسوته وصرامته .

كيف أوقعته ؟

كيف حدث ما حدث ؟ ؟

الله وحده أعلم !

وبدأت العجوز قصتها بصوتها الناعم الرقيق ، فهدأ الجمع الذى كان يطن كأنه خلية النحل . وبدا الصبية وقد أسندوا ذقونهم الى أكفهم الصغيرة .

حديث جدتى ..

obeikandl.com

يوم الخميس من أحب الأيام إلى نفسه . . فقد كان هو اليوم الذى يشعر فيه أنه حر طليق يرتع كما يشاء .. بل وكان يتمنى فى قرارة نفسه لو أضحى الأسبوع كله أيام خميس ، فلا يجد نفسه مقيداً إلى مكتبه طول أيام الأسبوع يحل مسائل الحساب ويكتب واجبات الانجليزى كأنه سجين حكم عليه بالاستذكار المؤبد !

وكان يوم الخميس ممتعاً حتى فى حصصه . . فقد كانت الحصتان الأولتان « إنشاء » والثانيتان « رسم » ، ولم يكن هناك أحب إلى نفسه من الإنشاء العربى والرسم . . فقد كان بارعاً فى كليهما ، وكان مدرسا العربى والرسم حبيبين إلى نفسه ، إذ كان أولهما طيب الخلق كريم النفس ، وكان ثانيهما سميناً أبيض اللون خفيف الدم . . فكان الصبى يجد فى درسيهما متعة وسروراً .

وكان الجرس لا يكاد يدق مؤذناً بانتهاء الحصة الرابعة ، حتى يسرع الصبى إلى بيته ، فيقذف بكتبه . . ثم ينطلق إلى بيت « جده » .

وكان بيت « الجد » هذا هو أحب أماكن النزهة إلى نفسه ، فقد كان به كل ما يرغبه الصبى ، وكان أهم ما يمتاز به

بيت جده عن بيت أبيه ، هو الحرية ! . . الحرية المطلقة التى لا يحدها قيد ولا شرط .

كان الصبي يجد نفسه مطلق الصراح . . يلعب كما يشاء . . ويأكل مايشاء ، ووقتما شاء . . كان يستطيع أن يدخل كل حجرات البيت دون أن يمنعه أحد خشية توسيخ الحجرات (أغلب الظن أن ذلك يرجع إلى أنه لم يكن من المستطاع توسيخها أكثر مما كانت) . . وكان يستطيع « الشقلبة » كما شاء دون أن يتهمه أحد « بالشقاوة » و « العفرتة » . . كان يشعر أن بيت جده ملىء بالحركة والحياة من كثرة مابه من الصبية الأقرباء من أولاد العم وأولاد العمة الذين كانوا يلتقون كل خميس فى بيت الجد أو « البيت الكبير » . . والواقع أن الصبية كانوا يجدون من روح الفوضى التى تسود البيت مرتعاً خصباً لمرحهم ولهوهم .

وأخيراً . . وهو أهم مافى الأمر . . كان الصبي يجد فى البيت جدّته العجوز التى كانت تخصه بالعطف دون سائر الأولاد ، والتى كانت تقص عليه أحسن القصص .

كانت الجدة بارعة فى فن القصص . . براعتها فى كل شؤون الحياة عند ما كانت تستطيع السير والحركة . . وقبل أن يصيبها ذلك الشلل الذى تركها راقدة طريحة الفراش . .

لا تستطيع النهوض . . ولا تقدر أن تقف على ساقيها .

كانت الجدّة امرأة عجيبة ، ولم تكن عجوزاً ككل العجائز فقد كان كل ما فيها محبباً إلى النفس مقرباً إلى القلب ، كانت متحدثة بلا ثرثرة . . طيبة القلب بلا حمق ولا بله . . سديدة الرأى بلا مكر ولا دهاء . . معتـــدة بنفسها بلا غرور ولا كبرياء .

وما زالت صورتها منطبعة فى رأس الصبى . . بجسدها الطويل النحيل الممدد على الفراش ، وقد بدا وجهها هادئاً ساكناً ، تعلوه صفرة وشحوب ، وشعرها الفضى قد أخفى بمنديل أبيض ، ويداها النحيلتان المعروقتان ، قد امتدتا فوق الغطاء .

وكان صوتها يعلو هادئاً ناعماً . . وقد التف حولها الصبية يلحون عليها أن « تحكى حدوته » . . وتبدأ قصتها فإذا بالسكون يسودهم وكأن على رؤوسهم الطير . . . ويشرئبون بأعناقهم إليها ويثبتون أبصارهم فى وجهها وهى تقص قصتها ، ويستمرون هكذا فى سكوتهم ساعات طوالا وهم الذين لايستقر لهم قرار ولاتهدأ لهم ساكنة حتى تنتهى القصة فيتمطون ويتثاءبون ويذهبون للعشاء والنوم ورؤوسهم ملآى بالقصة وحوادثها .

وكان بين الجمع صبية نحيفة رقيقة . . خضراء العينين ذهبية الشعر ، وكانت الصبية غريبة الأطوار شاذة الخلق . إذ كانت مرهفة الحس فياضة الشعور ، وكانت حادة المزاج سريعة التأثر ، وكانت من فرط إحساسها يخيل إلى الناس أنها مريضة أو مجنونة ، ولم تكن أحوالها تبدو طبيعية لطفلة فى مثل سنها .

وكانت الصبية تبكى لكل من يتألم إنساناً كان أو حيواناً وكان يصيبها التشنج عندما ترى الأطفال يلهون بضرب قطة أو صيد عصفور ، ولم تكن تطيق أن ترى أحداً يقتل أمامها حشرة مهما كانت ضآلتها وحقارتها ، وكان أكثر مايبكيها أن ترى الخدم يضربون أو ينهرون .

وفى ذات يوم من أيام الخميس الحبيبة إلى قلب الصبى ، انطلق كعادته إلى بيت جده . . فوجد الجميع فى انتظاره ، وبدأوا فى لعبهم ومرحهم حتى أصابهم الكلل ونال منهم التعب . . فتسللوا إلى الدار الفسيحة قبيل الغسق والتهموا بعض الأطعمة من المطبخ ، ثم التقوا مرة أخرى فى حجرة الجدة التى استقبلتهم فرحة باسمة ، والتفوا حول فراشها يطلبون منها كعادتهم أن تقص عليهم إحدى قصصها .

ولم تكن الصبية الرفيعة الجسم ، الخضراء العينين ،

تشاركهم ألعابهم العنيفة الصاخبة ، ولكنها كانت أسرعهم إلى الجلوس حول فراش العجوز ، وأشدهم إنصاتاً وأكثرهم لهفة وتشوقاً .

وبدأت العجوز قصتها فى صوتها الناعم الرقيق فهدأ الجمع الذى كان يطن كأنه خلية النحل ، وبدا الصبية وقد أسندوا ذقونهم إلى أكفهم الصغيرة .

قالت العجوز :

— فى غابر الزمان ، وسالف العصر والأوان . . كان يحكم الدنيا ملكان من ملوك الإنس أحدهما ملك المشرق والآخر ملك المغرب ، وكان الملكان العظيمان يتنازعان السلطان ، ولم تكن الحرب بينهما ليخمد لها أوار أو تنطفىء لها جذوة حتى ملت الرعية كثرة الصراع والقتال فأشار أحد الحكماء على ملك المشرق أن خير وسيلة لتوطيد أركان السلام ، وإبعاد شبح الحرب أن يزوج ابنه من ابنة ملك المغرب فيسود بذلك الوئام ويستتب الأمن وتحل الصداقة والحب بين الملكين محل البغض والكراهية وتتصافى النفوس وتصبح الأمتان أمة واحدة . . لاتعصف بها الحروب ، ولايقض مضاجعها الخوف والفزع .

وكان ملك المشرق قد مل طول القتال وشعر بالحاجة

إلى أن يقضى البقية الباقية من العمر فى هدوء وسلام . . فاستصوب رأى الحكيم . . ورحب به ، وسرعان ما أرسل الرسل إلى خصمه يطلبون يد ابنته ويعرضون عليه الصداقة الخالصة والود الصادق ، ويؤكدون رغبتهم فى الوئام والسلام .

ولكن ملك المغرب ردهم فى عنف وصدهم فى غير لين ولا رفق ، ولم يتورع أن يبدى لهم ازدراءه واحتقاره ، وطردهم شر طردة ، وعاد الرسل يجرون أذيال الخيبة والفشل وقد ثارت ثائرتهم وغلا مرجل الغضب فى نفوسهم فأفضوا إلى مليكهم بما كان من أمر خصمه ، وكيف أمعن فى إهانتهم والسخرية بهم .

وشعر ملك المشرق أنه قد أهين إهانة لا يغسلها إلا الدماء وندم على ما فرط منه من لين نحو خصمه . . وأقسم أن يجعل من ابنته سبية من السبايا ، وأن يحطم جيشه ويمزقه إرباً إرباً ، وأن يعذبه عذاباً لم يعذبه أحد .

وحشد الملك قواته ، وسير إلى خصمه جيشاً لم يسمع الناس بمثل ضخامته ولا قوته ووضع على رأسه ابنه الذى كان يملأ الحقد قلبه ، إذ كان يشعر أن اللطمة قد وجهت له دون سواه ، وكان يتحرق شوقاً للثأر لكرامته المهدورة ،

والانتقام من احتقره وازدراه .

واندفع الأمير بجيشه كأنه العاصفة لاتبقى ولا تذر ، وكان ملك المغرب قد بدأ يستعد للقاء خصمه . . فقد كان يعلم أنه لن يسكت على ماالحقه من إهانة ، ولكنه لم يتوقع أن يكيل له الضربة بمثل هذه السرعة ، ولا فى مثل هذه القوة . . .

وهم الجيش الغازى ، فصب على رؤوسهم الحمم فمزق شملهم وفرقهم أيدى سبا . . وفر الملك ووقعت ابنته أسيرة فى يدى الأمير .

وسيقت الأميرة ذليلة مطأطئة الرأس وقد رأت بعينها ماحل بأهلها من نوازل وكوارث ، وماارتكبه الأمير من تذليل وتعذيب . . فأفعم قلبها بالحقد عليه والازدراء له .

ورأى الأمير أن الأميرة تستحق ماسفك لأجلها من دماء ، وما بذل فى سبيلها من أرواح . . فقد كانت رائعة الحسن فاتنة ساحرة . . حتى أحس الأمير أن الأسيرة على وشك أن تصبح آسرة ، وأن السبية الذليلة قد استحوذت على نفسه فأضحت فى قلبه ناهية آمرة ! !

وعصف الهوى بقلب الأمير ، وحاول أن يستميل الأميرة إليه ، ولكن قلبها كان مليئاً بكراهيته ، وحاول

استرضاءها برفعها من مصاف السبايا وأعلن زواجه منها . ولكنها استمرت على بغضه وازدرائه .

وشعر الأمير أن حياته قد باتت مقفرة مظلمة ، فقد كان محروماً من حب الفتاة التى جن بحبها .

ومرت الأيام ، وكان ملك المغرب قد أخذ يستعيد قواه ويعد العدة للثأر لنفسه ، حتى كان ذات يوم أتم فيه استعداده ووجه جيشاً هائلا للهجوم على خصمه .

وأحس ملك المشرق بالخطر يدنو منه فأخذ فى تحصين مدينته . . فلم يكد يصل الجيش الهاجم حتى كانت المدينة أمنع من العقاب .

واضطر المهاجمون أن يضربوا الحصار على المدينة وأن يضيقوا الخناق عليها ، ولكن المدينة استمرت فى مقاومتها الباسلة دون أن ينال منها العدو شيئاً . وكانت الأميرة تتلهف على نجاح أبيها فى هجومه ليخلصها من أسرها وينكل بالأمير وقومه كما نكلوا به من قبل ، وبدأ اليأس يدب فى قلبها عندما رأت أباها يفشل فى اقتحام المدينة ، وصممت على أن تغرر بالأمير فتحصل منه على ما لديه من أسرار تساعد أباها فى هجومه .

وشعر الأمير أن الأميرة قد بدأت تتلطف به وتلين له

وأحس أن بغضها قد أضحى حباً ، فتملكه السرور وملأت السعادة قلبه . . واستدرجته الأميرة . . فوثق بها ولم يتوان عن أن يفضى إليها بكل ماعنده .

وفى جنح الظلام تسللت الأميرة من القصر ، وهربت فى زى أحد الجنود وذهبت إلى معسكر أبيها فباحت له بأسرار الأمير ، ولم يمض يومان على اختفائها من القصر حتى كانت المدينة قد سقطت وحصدها العدو حصداً .

وأسر الأمير واقتادوه ذليلا كما اقتاد الأميرة من قبل ، وسجنوه فى قبو مظلم رطيب يقضى به بقية حياته .

ولم يكن يحزن الأمير فى كل ماحدث له إلا خيانة الأميرة . . فقد كان حبها مازال عالقاً فى فؤاده ، وكان يمزق قلبه أن ما أظهرته له من حب لم يكن إلا لخديعته والإيقاع به .

ورأت الأميرة مافعله أبوها وجيشه بقوم الأمير . . فرأت أن الأمير كان أكثر رحمة وأكرم قلباً . . فقد انقض قومها على أعدائهم فلم يتركوهم إلا عظاماً نخرة وحطاماً بالية ، وأحرقوا الحرث والنسل ، وذبحوا النساء والأطفال .

وأحست الأميرة بالندم يخزها على خيانتها للأمير . . وشعرت أنه لم يرتكب ماارتكب إلا من أجلها ، وأنه

كان كريماً معها ، وبدأ حبه يتسلل إلى قلبها يوماً بعد يوم . حتى شعرت أخيراً أنه قد ملأ قلبها وملك عليها حواسها .

وتنكرت الأميرة فى زى خادمة وحملت معها إناء به خمر وتسللت إليه تبغى زيارته فى قبوه وأخبرت الحارس أن سيدتها الأميرة قد أرسلتها لتعطى الإناء للأمير السجين . وذهل الأمير حين وجدها أمامه ، ولكنها أسرت إليه بندمها واعترفت له بحبها . . فكاد يجن من الفرح ، وأحس أنه خير له مائة مرة أن يعيش معها سجيناً فى القبو من أن يعيش بدونها طليقاً فى قصره ومملكته ، وشغلهما الهوى برهة . . ثم أفاقا على صوت أقدام الحارس تقترب . . فانهمكت فى ملء الكأس للأمير . . وأعطتها له فجرعها فى لهفة ، وخيل للأمير أن طعم الشراب كان غريباً ، وتوهم حرارة فى جوفه . . فظن بالشراب سماً ، وبدأ الوهم يتملكه فخشى أن تكون الأميرة قد جاءت لتخدعه مرة أخرى ، وزاد الوهم فى نفسه فجن جنونه ، ورأت الأميرة عيناه تجحظ وأسنانه تصر ثم قفز فجأة وأمسك بعنقها فى قبضة يده وصاح بها :

— لِمَ تصرين على تعذيبى وقتلى . . أنا الذى أحببتك حباً لم يحبه إنسان من قبل . . أنا لا أخشى الموت ، ولكنى

يفجعنى أن أموت بيدك ، وأنا لا أرغب فى الانتقام منك ، ولكنى لا أرغب فى الذهاب إلى الحياة الأخرى بدونك !

وحاولت الأميرة أن تتكلم وأن تقسم له أنها تحبه حقيقة وأنها لاتخدعه فى هذه المرة ، وأن الشراب الذى أعطته إياه ليس به أثر للسم ، ولكن الأمير طعنها بسيفه طعنة نجلاء حتى يتمكن من قتلها قبل أن يسرى السم فى جسده فتتركه لاحراك به .

وارتمت الأميرة جثة هامدة ، واحتضنها الأمير وقد مزق الألم قلبه ، وأغمض عينيه ، وأخذ ينتظر أن يمزق السم أحشاءه وأن تفيض روحه فيلحق بمعشوقته .

ومر الوقت بطيئاً ، والأمير يحس أنه مازال حياً ، وأخيراً بدأت الغيوم تنقشع عن ذهنه فأدرك أن الأميرة لم تخدعه ولم تدس له السم ، وأنه قتلها ظلماً وعدواناً .

ولم يطق الأمير الحياة لحظة واحدة فثبت سيفه على الأرض ثم رمى بصدره عليه فنفذ فى قلبه وفاضت روحه .

* * *

ودخلت الخادمة تعلن أن العشاء قد جهز . . فأفاق الصبية من ذهولهم ، وختمت الجدة قصتها قائلة « توته . توته فرغت الحدوته » .

وقفز الصبية من أماكنهم ، وانقلب السكون ضجيجاً وصخباً واندفعوا يتسابقون إلى الطعام كأنهم لم يذوقوا للأكل مذ خلقوا طعماً .

وساد السكون الحجرة مرة أخرى ، وتلفتت الجدة حولها ، فإذا بالصبية النحيلة مازالت قابعة فى مكانها لم تغادر الحجرة مع الجمع الصاخب المنطلق .

وكانت الصبية الصغيرة تبدو شاردة النظرات . . تائهة الفكر ، وقد ملأ الحزن قسمات وجهها . . وسألتها الجدة فى رفق عما بها ، ففاضت عيناها بالدموع وأجابتها فى صوت خافت يقطعه البكاء :

— لِمَ قتلها ؟! وقتل نفسه ؟! لو أنه تمهل قليلا لعلم أنها لم تسمه ولعاشا سعيدين وتمتع كل منهما بالآخر .

وضحكت الجدّة وربتت على ظهر الفتاة . . ثم قبلتها فى حنان وأجابتها :

— يا حبيبتى إنها قصة . . فليس هناك أمير ولا أميرة .

ولكن الصبية لم يقنعها هذا القول واستمرت فى وجومها وشرودها ، وفاض بها الحزن على العاشقين . . واستمر الأسى يملأ قلبها .

وذهب الصبى فى الخميس التالى فافتقد الصبية بين الجمع ،

وسأل عنها فانباوه أنها لم تحضر لأنها مريضة . . ولم يكن الجمع على عادته من المرح والضجيج ، وكانت الدار يسودها سكون موحش ، ولم تقص الجدة قصتها كعادتها كل خميس .. فقد كانت هى الأخرى حزينة واجمة .

ولم يستطع الصبي أن يمنع نفسه من الضحك ، عندما أخبره أحد الصبية هامساً أن ابنة العم مريضة من فرط حزنها على الأمير والأميرة التى سمعت قصتهما من الجدة فى الأسبوع الماضى .

وقبيل الغسق رأى الصبي عمه (والد الصبية المريضة) ، قد حضر إلى الدار متجهم الوجه ، مقطب الجبين ، وشاهده يدخل على جدته .. ثم سمع الجدة العجوز تبكى بكاء خافتاً .

وذهل الصبى عندما أبصر بجدته ، للمرة الأولى فى حياته قد خرجت من حجرتها وهى تزحف على الأرض ، وقد أصرت على الخروج .. ثم رآهم يحملونها على مقعد وينزلون بها السلم حيث يضعونها فى عربة حملتها إلى بيت العم ، حيث الصبية المريضة .

وعلم أن الصبية قد أصابتها حمى خبيثة شديدة الخطر ، وأنها تهذى بقصة الأمير والأميرة ، وتبكى فى هذيانها على ما أصابهما .

وفى بيت العم رأى جدته العجوز ، وقد حملوها إلى حجرة المريضة ، وأرقدوها بجوارها .

وكان الصبي دهشاً من كل ماحدث .. لا يكاد يدرى سبباً لانتقال جدته ، وتكليف نفسها كل هذه المشقة والعناء ومد رأسه داخل الباب ، فأبصر بجدته قد تمددت فى فراش الصبية ، وقد ضمتها إلى صدرها بإحدى يديها .

وسمع صوت الصبية يهذى بكلمات متقطعة ، ثم سمع صوت الجدة تدللها بكلمات ملؤها الرقة والحنان . وتقول « يا حبيبتى .. ألا تدرين ما حدث للأميرة والأمير ؟ »

وصمتت الصبية ، وانقطع هذيانها وعادت الجدة تقول :

— لقد أفاق الأمير ، فعلم أن السيف لم يقتله بل أصابه بجرح خطير كاد يودى بحياته لولا أن استطاع الحارس نجدته وأبلغ الطبيب فضمد له جرحه وأنقذ حياته . . وساء الأمير أن وجد نفسه حياً ، فقد كان لا يرغب فى الحياة دون أميرته المحبوبة .. غير أنه علم أن الأميرة أيضاً لم تمت ، إذ لم يكن جرحها قاتلا واستطاعوا إنقاذها .. فملأ الفرح قلبه .. ولكنه خشى أن يقتلوه لمحاولته قتلها . . وخشى أكثر من ذلك أن تكون قد عادت إلى بغضه وكراهيته بعد ما فعله بها . . وعصفت به الهواجس فعاد إلى إغمائه .

وأفاق الأمير مرة ثانية على صوت حبيب إلى قلبه . . فلم يصدق أذنيه ، ولكنه فتح عينيه ، فأبصر أمامه الأميرة المحبوبة بدمها ولحمها .. وأبلغته الأميرة أن أباها قد عفا عنه وأطلق سراحه ، وأنه حر فى أن يعود إلى مملكته ، ولكن الأمير لم يبد عليه الفرح ، وأخبرها أنه لا يريد حريته ولا مملكته ، ولكنه يريدها هى . . فأخبرته أنها هى أيضاً ملك يديه يفعل بها مايشاء .

وتزوج الأمير بالأميرة « وعاشوا فى التبات والنبات ، وخلفوا صبيان وبنات » .

وظهر الهدوء على الصبية المريضة وكفت عن الهذيان واستمرت الجدة تدللها حتى راحت فى سبات عميق .

وعند ما عاد الصبي فى الخميس التالى ، وجد الصبية فى وسط الجمع ، وهى تضحك فى غبطة ومرح . . وكان أول ما قالت له :

ــ ألا تدرى ما حدث للأمير والأميرة ؟

فضحك الصبي وقال :

ــ نعم أعرف .. لقد أنقذا من الموت ، وتزوجا .

واندهشت الصبية كيف علم الصبي ، وسألته من أخبرك ؟

وضحك الصبي مرة أخرى وأجاب :

ـ أخبرني الأمير نفسه .

ولا يذكر الصبي أن الجدة قصت عليهم بعد ذلك قصة إلا وقد تزوج البطلان في النهاية .

obeikandl.com

فهرس

صفحة

الإهداء ٥

مقدمة ٧

خال علام ٩

رحت الفرن ٢٥

الأسطى عبده والمستر تويدى ٣٧

فى بيت معه ٥١

فى رذنجوت ٦٥

الوسواس الخناس ٨١

إمام الفلك ١٠٥

النزهى ١١٩

صينية قرع ١٣٧

فى سبيل كلب ١٥١

منتهى الفناء ١٦٩

الزوج الحادى عشر ١٨٧

حديث جدة ٢٠١

obeikandl.com